

(تمهيد)

حالة المجتمع هي البرهان الوحيد الذي يثبت أن عملية الخلق هي أمر يحمد الله عليه و أن الدين الذي يختاره الناس أمر يعول عليه, لا الكلام النظري و لو كان راسخا ليس بكاف لاثبات ذلك, و لا كون بضعة أشخاص في فترة من الايام الغابرة انتصروا بمنهج ما فهذا لا يدل بالضرورة على حسنه دائما لأن الأحكام تتغير بتغير الظروف و الأزمان. بل اليوم هو الشاهد الوحيد الحي, و هل تقبل شهادة الأموات على حي! و لذلك فحالة المجتمع هي أهم ما يجب على كل فرد مستيقظ أن ينظر فيه فيسعى لتغييره أو يبقيه.

و من أجل هذه الغاية الأولية وضع هذا الكتاب. و الغاية الكبرى هي فهم شؤون نشأة المجتمعات و أحوالها و فهم المجتمع الأحسن الممكن ما هو؟ و هل هو خيال أم يمكن فعلا القيام به؟ و ان كان يمكن القيام به فكيف؟

و لا شك أن الناس عامة تختلف في كل شيء, اذ لا يوجد مسألة الا و لها وجهات نظر مختلفة. كالبيت, فكل ناظر ينظر من زاوية معينة و لا يرضى أن ينظر من زاوية أخيه (ان كان مغفلا بالطبع) فيتخذ لنفسه مذهبا و يطرد أخيه من العلم و الرحمة أيضا ان استطاع. و لكن ان كان يوجد شيء لم يختلف عليه الناس فهو أن الناس تريد اجتناب الألم و كسب السعادة, بغض النظر عن تعريفاتهم المختلفة حول ماهية الألم و السعادة, فمن الناس من يرى جلد نفسه في سبيل اظهار الحب لفلان هو أمر يجلب السعادة و غيره يرى هذا من البلاهة التامة و يسميه مرض نفسي. فاذا أخذنا بالتعريف العام للسعادة أي المقبول من الأكثرية أو المفترض فيهم السلامة فتكون السعادة هي صحة الجسم و فرحة القلب. و هذه هي القاعدة الوحيدة الصلبة التي يمكن أن نبني عليها ما نريد معرفته. فمن أراد أن يعلّم شيئا فعليه أن يبين الألم الذي يسببه و السعادة التي يأتي بها. و قد يكون الألم طريق السعادة, كالرياضة طريق الصحة و الجمال و القوة, فنتحمل الألم القليل في سبيل فرحة أكبر. فالأمر كالميزان, نضع الالام في كفة و السعادة في كفة و الكفة التي ترجح نعمل بمقتضاها, فاما الترك و اما الأخذ. و بالطبع الأمور ليست دائما بهذه السهولة و الدقة الفيزيائية التي تسهل علينا عملية وزن القيم و الأفكار و لكن الضرورة تلجئنا الى أن نسدد و نقارب و نتقي الألم ما استطعنا.

فالمجتمع اما أن يكون مجتمع سعادة أو ألم. بحسب أي الصفتين تغلب على أكثر عدد من أفراده. فمثلا مجتمع من 100 فرد: 70 فقراء و 30 أغنياء هذا يسمى مجتمع تعيس, والعكس بالعكس. و لذلك نريد أن نبحث في الأسباب التي تخلق المجتمعات و تشكلها, اذ لكل أثر سبب أو أسباب أخرجته. فاذا عرفنا الأسباب فاننا عندها نستطيع أن نعرف ما هو المجتمع السعيد الواقعي, ثم نسعى الى ايجاد وسائل لتغيير أكبر عدد من أسباب

التعاسة الى أسباب سعادة, و بذلك يتغير الحال. و دليل جهل الناس هو عندما يأخذون بأسباب التعاسة في عقائدهم و أفعالهم و يترنمون بأسباب السعادة في خطبهم و محادثاتهم.

هل الانسان مخلوق اجتماعي بطبعه-كما يشاع؟ هذا سؤال شديد الأهمية لأنه سينبني على اجابته الكثير من الأمور, و سنفهم به الكثير من الأمور التي تحيرنا أحيانا و نحن ننظر في سلوك بعض الناس في المجتمع و غير ذلك. فيجب أولا أن ننظر في احتمالات معاني الكلمات التي في السؤال, اذ كل سؤال يحوي جوابه فيه بطريق ضعيف, ثم ننظر و نسير مع البحث الى حيث يأخذنا.

(الانسان) اما أن نقصد كل الناس عالمهم و جاهلهم, أو بعضهم فقط (مخلوق) اما أن الطبيعة أوجبت عليه أن يحيا في مجتمع بطريق الجبر كالرغبة في البقاء, و اما بطريق الحث من باب التيسير, و اما أنه يجب أن يحيا في مجتمع ليحقق ما خلق له (اجتماعي) اما أنه يحتاج الى الاخرين لتوفير أشياء المعيشة الجسمانية, و اما أنه ليس في امكانه الانعزال أصلا (بطبيعته) اما لو أنه ترك وحده لذهب يبحث عن مجتمع, و اما أنه يفضل ذلك من باب الاستئناس بالناس. و هذه مجرد خطوط عريضة لتساعدنا في البحث.

نرى خلال التاريخ و من التحليل النفسي أن العلماء الكبار, و المتأملين الروحانيين يفضلون الانعزال عن الناس في كثير من الاحيان, و هؤلاء من خيرة الناس اذ هم الذين أسسوا الحضارة للناس. بل في بعض المجتمعات قد يفضل أكبر الناس عقلا أن لا خير أبدا في مخالطة الناس لغير ضرورة المعيشة. و في كثير من الاحيان نرى أن الأغبياء هم الوحيدين الذين لا يستطيعون البقاء وحدهم في خلوة بيوتهم, بل لا يطيقون مجود الجلوس وحدهم (و التحليلات النفسية تكشف عن أسباب مثل هذا السلوك) فأن يكون الانسان اجتماعي بمعنى أنه مضطر للتعامل مع الاخرين من أجل كسب معيشته الجسمانية الضرورية فهذا مما لا شك فيه. و هذه الحقيقة الثانية في بحثنا.

و المعيشة هي الطعام و اللباس و السكن و الطب و الأمن. و ظاهر أن فعل هذه الأمور الخمسة وحدك أمر يقرب من المستحيل ان لم يكن مستحيلا أصلا. و ان فرضنا جدلا امكانية ذلك فان حياة هذا الشخص ستكون تعيسة من كثرة مشاغله في أمور جسمه. أما في المجتمع فطائفة تشتغل بصنع الطعام, و طائفة في صنع اللباس بكل ما في ذلك من عمل, و ثالثة في الهندسة و البناء و هكذا في بالقي الأعمال. و يتعاونون فيما بينهم كما يحدث في المجتمعات بصورة عامة.

فاذن "الاجتماع لتيسير المعيشة" هي قاعدة المجتمع الأولى و الكبرى. و لذلك عندما يعجز المجتمع عن توفير شيء من فروع المعيشة الخمسة لانسان فانه غالبا ما يسخط أو يهاجر.

و يزيد من تأكيد هذه القاعدة الكبرى هو أنه يوجد الكثير من الناس, و لعل كاتب هذه السطور منهم, اذا توفرت له المعيشة بدون الحاجة الى العمل أي بطريق "مبارك" فانه قد لا يخالط الناس الا قليلا. و يكون الانعزال لاتمام أمور معينة أحب اليه من الاجتماع بعامة الناس, كالتأمل مثلا أو القراءة و الدراسة. فاذن "الاجتماع للمعيشة الميسرة ضرورة".

و بما أن الانسان يسير تحت مظلة اجتناب الألم و كسب السعادة فانه سيفضل الحياة في المجتمع لأسباب عدة: منها أنه لن يضطر الى تعلم كل شيء من الصفر في أمور المعيشة و حتى غيرها. فلن يحتاج أن يبدأ الطب عن طريق الخرافات و التجارب الارتجالية و أكل ما الله به عليم, لا , و لكن الأطباء في المجتمع قد تراكم علمهم, و يرث اللاحق تجارب السابق, و بذلك يزداد اليسر في أمور المعيشة,و بذلك يتجنب ألم التجربة و الخطأ و البحث, و تكون نسبة فرحته و طمأنينته أكبر. و هذا يزيد اليقين في أن الانسان يضطر أن يحيا في مجتمع لييسر معيشته.

فنخلص الى أن الانسان اجتماعي لتحصيل المعيشة بأيسر الطرق. و هذا هو الأصل و الباقي لو وجد فهو فروع, و الأصل اذا انقطع انقطعت كل الفروع. أما فرع الشجرة اذا انقطع فان الشجرة لا تزال قائمة على أصلها. و بما أن هذا هو أصل المجتمعات فاذن "أساس تقييم حالة المجتمع هو مدى يسر تحصيل المعيشة فيه".

فما معيار اليسر و العسر في هذا الأمر؟ اذ اليسر عند شخص هو عسر عند الغير. الجواب: هو في ثلاثة أمور: عدد الأيام و الساعات التي يتوجب عليه العمل فيها, هل اختار عمله راضيا به من قلبه, هل يضره عمله في جسمه و قلبه.

(عدد الأيام و الساعات التي يعمل فيها)

من الظاهر أن عدد ساعات العمل التي يحتاجها المجتمع لتوفير كل ما يحتاجه هو أمر نسبي جدا, و أقصا ما نستطيع فعله هنا هو أن نستنبط الهدف الأكبر الذي يجب أن يكون في عقل الذين يرسمون سياسة المجتمع. و حيث ان العمل للمعيشة هو نوع من الشقاء بصورة عامة, و كلما توفر وقت أكبر للراحة و الفراغ كان ذلك أدعى الى تطوير قوى النفس و جعلها تبدع في مجالها الخاص (و ذلك اذا راعينا مسألة استعمال الوقت في النافع بدل قتله كما هو السائد ..لأسباب معروفة) .

الهدف الأكبر المثالي هو أن لا يحتاج الناس الى العمل لمعيشتهم. نعم لعل هذه شطحة في الأمل, و لكن دعني أبرر هذه الفكرة بأمرين:

أولا هذه الفكرة قد تكون شطحة مسرفة بالنسبة لأسلافنا و لكن في عصرنا هذا يوجد الكثير جدا من الأعمال التي يمكن أن نستغني عن توظف البشر لها, بل من الأحسن أن لا نوظف فيها بشر, و هذا ما هو واقع و الناس تسعى لمثل هذا الا أن بعض العقبات في منهجنا الحالي في الاقتصاد و السياسة و انتشار العقد النفسية و العقائد الباطلة يمنع من الاندفاع بقوة في سبيل هذا الهدف. و سننظر في الكتاب الثاني المخصص للنظرية الاقتصادية في أهم هذه العقبات. و مما هو معلوم أن بعض المزارع مثلا التي كانت توظف 3000 عامل أصبحت اليوم لا تحتاج الى أكثر من عامل أو بضعة عمال لتشغيل بضعة الات و التأكد من عملها بسلام. و كذلك الأنظمة الأمنية المتطورة جعلتنا في غنى عن أن نوظف حارسا مثلا ليقف بجانب كل صراف ليتأكد من عدم سرقته. و قل مثل ذلك في كل المجالات. و اذا استطعنا أن نحلل و نعالج أهم العقد النفسية المنتشرة فلعلنا نستطيع أن نستغني عن الكثير مما نحسبه اليوم ضرورة حياتية. تصور فقط ماذا سيحدث لو وضع ربع ما يخصص لابتكار أسلحة الدمار الشامل, في سبيل تطوير برامج و أجهزة لتدمير ضرورة عمل الانسان في الاعمال الروتينية أو الغير مرغوبة, فما بالك لو استطعنا أن نخصص ثلاثة أرباع ما ينفق على قتل الناس في سبيل راحة الناس! هذا ليس امال فارغة, فاصبر و سترى المنطق و الأسباب ورائها. و اذا كان باستطاعة الانسان تدمير الانسان فانه يستطيع تجميله. فالتدمير ماهو الا تجميل ضل طريقه أو رغب في الطريق المختصر.

ثانيا لا نحتاج أن نصل فعلا الى هذه الفكرة حتى نعتبرها هدفا جيدا. فحتى على فرض عدم استطاعتنا على الوصول اليها, فان وجود الرغبة في تقليل ساعات العمل الى أقل درجة ممكنة بأحسن الطرق هو بحد ذاته هدف عظيم. و كمثال على عمل كان يحسب أنه من ضرورات الحياة حتى فترة قريبة هي مهمة ساعي البريد. و مع دخول الجوالات و الفاكس و الانترنت ألم تمحى هذه الوظيفة الى حد كبير من المجتمع, بل أصبحت منحصرة في توصيل الطرود الكبيرة, و من ناحية الرسائل فهي شبه معدومة أو معدومة فعلا. و هكذا في باقي الأعمال الى حد كبير.

و لكن حتى فترة العمل هذه, الا يجدر ان يكون عندنا حد أعلى للعمل؟ لقد قامت فعلا المجتمعات و حددت الحد الأقصا للعمل. و لا أريد أن أنقد النظريات التي قامت عليها هذه السياسات. و لكن أحب أن أضيف نظرية جديدة استنبطها من القرءان و لا أرغب أبدا أن أجعل قوة النظرية مستندة الى واقع أني استوحيتها من القرءان, و انما ذكرت ذلك من باب ذكر الواقع فقط. و من المبادئ في منهجي هو أن الفكرة مستقلة عن المصدر أو الطريقة التي استوحيت بها. فقد ينظر الانسان الى هتلر و يستوحي ضرورة نشر مراكز للعلاج النفسي أو مؤسسات السلام , فكون الفكرة استوحيت من مشاهدة هتلر لا يعني أن الفكرة خاطئة, و العكس كذلك صحيح, فليس كل من يستوحي من شخص عظيم تكون فكرته صحيحة. الأفكار تقيّم بنفسها. و هذا هو منهج أيام العمل و ساعاته:

أيام العمل للمعيشة أربعة, و اليوم الخامس مخصص للتفكير في تحسين العمل و تطويره. فيصح القول أن أيام العمل خمسة, من الأحد الى الخميس. و الجمعة و السبت اجازة.

ساعات العمل من بعد طلوع الشمس الى ما قبل غروبها, بفاصل راحة ساعة من النهار.

والحد الأدنى للعمل هو يومان في الاسبوع من بعد طلوع الشمس الى الظهيرة. و الحد الأعلى للعمل هو أربعة أيام في الاسبوع من بعد طلوع الشمس الى ما قبل غروبها.

ما زاد عن الحد الأعلى و تعداه فهو في مساحة العسر, و ما كان ضمن الحد الأدنى و الأعلى فهو في حكم اليسر. و قمة المجتمع هو أن يصل الى الحد الأدنى من العمل, يومان من طلوع الشمس الى الظهيرة, أي فترة واحدة مرتين في الاسبوع. و هذا قمة اليسر في الوضع الحالي. (على اساس ان في اليوم فترتين: فترة من طلوع الشمس الى الظهيرة, و فترة من بعد ساعة الراحة في الظهيرة الى قبل غروب الشمس).

و بالطبع فان قمة اليسر المطلقة هي في عدم العمل كليا, و لكن يظهر أن هذا لا يمكن أن يتحقق تماما اذ حتى لو تيسرت كل الالات فان تشغيل الالات و صيانتها سيحتاج الى عمّال, و لكن من يدري لعلنا نصل يوما الى ابتكار الات تشغل نفسها بنفسها كما هو موجود في مجالات كثيرة, و تصلح نفسها بنفسها كما هو موجود فعلا في مجالات كثيرة. فالمجال مفتوح. و لكن خلال التطور هذا فانا سنأخذ بأحسن نظرية تناسب ظروفنا, و اذا تغيرت الأحوال تغيرت الأحكام.

و يوجد في هذه النظرية ثغرات. فمنها أنها لا تحدد العمل الليلي, فبعض الوظائف تحتاج الى عمال ليليين كالممرضين في المستشفيات و الأطباء. نعم, و يجاب على هذا بأن النظرية تتحدث عن الصورة العامة, فأغلب الوظائف تتم في النهار. و لكن يقاس على عمل النهار عمل الليل. و يؤخذ بنفس عدد الساعات كمعيار. فاذا افترضنا أن عمل النهار 8 ساعات كحد أقصا فان عمل الليل يكون 8 ساعات كحد أقصا كذلك, و هكذا.

و أهم ما أراه في هذه النظرية هو فكرة اليوم الخامس, يوم التطوير. فهو أن يجتمع العمال في المنشأة ليفكروا سويا في كيفية تجاوز الأخطاء التي ارتكبت خلال الاسبوع, و أيضا للتفكير في كيفية تطوير العمل كله بصورة عامة. و بذلك يكون التحسين مستمرا بدون انقطاع,اذ فكرة اليوم و فكرة غدا عاجلا ام اجلا سيصنعوا جبلا.

على أية حال هذه مجرد أطراف خيوط و مبادئ للتفكير , و لعل التعمق فيها و تفصيلها له محل اخر.

(هل اختار عمله راضيا من قلبه)

أعمال المعيشة تتنوع و تتفرع, فيوجد الطب بفروعه و الهندسة بفروعها و الزراعة بفروعها و هكذا. و لكل واحد من هذه الفروع يحتاج المجتمع الى من يشغله.

و يوجد عوامل كثيرة تدفع الانسان لاختيار مجال عمل معين يخدم فيه المجتمع ليكسب معيشته. و المهم هنا هو أن الانسان اذا ترك و اختياره فان كل المجالات ستشغل , بحسب الحاجة و الحوافز.

و لكن ثمة مثل فيه الكثير من البصيرة يقول "اذا كنت أنا أمير و أنت أمير فمن راعي الحمير؟!" فيوجد الكثير من الأعمال لا يرضى الكثير من الناس أن يشغلوها طوعا, كتنظيف المجاري مثلا, و هي شديدة الأهمية, اذ تصور ماذا سيحدث اذا لم تصرف الفضلات في المجاري, هل سيحتمل الناس الرائحة؟ و هل سيستطيع أحد أن يفكر في شيء؟ ألن تنتشر الأمراض و الأوساخ؟ فمن الذي سيختار أن يشغل مثل هذا العمل اذا ترك و اختياره الحر, اذ لولا اضطراره لكسب معيشته له و لأهله, و لولا عدم وجدانه لغير هذا العمل لما شغله؟ فهل هذا راضيا من قلبه؟

أولا يجب أن نتذكر تمام التذكر دائما أنه لا تفاضل في الأعمال. كل الأعمال على درجة واحدة في الأهمية, اذ لو فقد واحد بطل الكل. تصور مجتمع من العباقرة و المتألهين, فمن الذي سيفلح الأرض و يطعمهم حتى يعيشوا ليفكروا و يخرجوا لنا علمهم المقدس هذا؟ فالفلاح سيد بالنسبة لهؤلاء العباقرة و المتألهين, مع أنه قد لا يعرف القراءة والكتابة و لعله لم يجلس للتأمل مرة في حياته. و ماذا سيحدث لو لم يكن ثمة أطباء؟ فان هذا الفلاح سيموت من أقل مرض يصيبه اذا احتاج الى العلاج و لم يعالجه. و لولا الثمر الذي يقدمه الفلاح "الجاهل" للسوق لمات الطبيب جوعا هو و الطب الذي قضى عشر سنوات في تعلمه! فالكل مفتقر الى الكل , فالكل مساو للكل.و قد اعتاد الناس أن يجعلوا الطبيب راق و الفلاح سافل, دع الفلاح يتوقف عن العمل ثم انظر هل سيستطبع الطبيب اكتشاف اكسير الحياة أم أنه سيموت صبرا!

ثانيا يجب أن نعرف أن العمل للمعيشة هو لخدمة المجتمع أولا و اخرا و ليس للتسلية الشخصية. و لكي أخدم المجتمع يجب أن أعرف الى ماذا يحتاج, ثم أسعى لكي أملأ هذا الفراغ. فيجب ان نحترز من الخلط بين العمل للمعيشة و المتعة الشخصية. العمل للمعيشة يجب ان يتقبل كنوع من الشقاء في الكثير من الأحيان, و لعل تقبله سيخفف من ألمه أو يزيله تماما اذا فعلنا بعض الأمور. فلننظر الى العمل بابتسام قدر الامكان, لأنه ضرورة و الضرورة لم تسمى ضرورة الا من الضرر و هو ضد المتعة و التسلية. اذهب و تسلى في وقتك الخاص كما تشاء. فاذا افترضنا أنك تعمل بالحد الأقصا و هو 8 ساعات مثلا, فعندك 16 ساعة لتعمل ما تشاء, و عندك يومان كاملان لتتسلى كما تشاء, و عندك الاجازات و غير ذلك. فحتى لو كنت لا تطيق العمل أبدا فتذكر أن العمل ليس لمتعتك و لكن لحياة نفسك و جماعتك. و المتعة في العمل شئ ثانوي.

و بحسب استعدادات كل انسان سيقوم بعمل ما ينفع به المجتمع و يكسب معيشته الطيبة منه. و من يدري فلعل عامل النظافة ينظر الى شقاء الطبيب فيقول "الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به هذا المسكين" , و قد ينظر

الفيلسوف الى عامل النظافة فيقول "الحمد لله على نعمة العقل" . فكل واحد يرى نفسه الأحسن اذا اختار عمله, لأن الفرحة بنت الرغبة و السعي لها, و السعادة أمر مجرد و نحن نلبسها أثواب متعددة ثم نظن أن السعادة تختلف في جوهرها, كالذي يضع العسل في صندوق خشب أو ابريق فضة, الجوهر هو العسل بغض النظر عن الوعاء الذي يحويه. فتأثير الوعاء ثانوي.

فالرضا أن لا يستعبد انسان و يجبر على أعمال لا يريدها بقوة السوط و الارهاب. فما دام يتحرك بارادته فقد تحقق الرضا المطلوب, و كل ما وراء ذلك أحسبه من الخيالات التي لا يمكن تحققها الا نادرا. و بالطبع يوجد دائما الانتحار لمن لا يحب أن يسلّم بوقائع هذه الحياة و امكانياتها و حدودها. فاذا اخترت الحياة فلا تتململ, بل قف و اعمل بقوة و ابتسم.

(هل يضره عمله في جسمه و قلبه)

كالذين يعملون تحت حر الشمس أو استخراج الفحم أو غير ذلك. فهؤلاء يصابون بأمراض كثيرة فيجب أن يسعى المجتمع بكل قوته لاختراع وسائل للوقاية من مثل هذا. و ذلك في كل عمل. فيجب أن نحسب حساب كل ضرر جسماني أو نفسي يمكن أن يصيب العاملين و نسعى للتطوير ووضع العلاج. و الوقاية خير من العلاج. و حتى في عمل مثل التدريس يجب أن يحسب حساب مثل هذه الأضرار, فكم من استاذ يرغب في الانتحار من غباء طلابه! و مثل هذا التطوير لا يقف عند حد معلوم, فنكتفي بهذه الاشارة.

فهذا مجمل القول في ما يتعلق بمعيار العسر و اليسر, الذي هو أساس حالة الفرد و بالتالي المجتمع. و بلوغ أعلى درجات اليسر هو العامل المشترك الوحيد الذي يجب أن يكون بين كل أفراد المجتمع, بدون الالتفات الى أي أمر اخر اطلاقا, فلا علاقة لعقائد الشخص في كونه فردا في المجتمع و لا لرغباته الشخصية و كيفية استمداد متعته في بيته الخاص. تيسير المعيشة الجسمانية المشتركة هو اية المواطنة و الانضمام الى الجماعة فقط لا غير. كلنا بشر, و كلنا نريد أن نعيش بأيسر الطرق في الامكان. فلنعمل سويا من أجل ذلك. أما ماذا نفعل بحياتنا بعد أن نأكل و نشرب فهذا أمر اخر تماما و لا يخضع لأي تنظيم و رقابة ما دام لم يتم الاعتداء على اجسام الاخرين بدون رضاهم.

فان كان المجتمع و أفراده كالجسم و أعضاءه فان العمل لتيسير المعيشة هو الدم الذي يحرك هذه الأعضاء.

فالمجتمع كالشجرة, أصل و فروع. الأصل المعيشة و الفروع رغبات هذا المجتمع و غاية أهله من الحياة. و الان نستطيع أن نبدأ في السفر في هذا الكتاب, و فيه خمسة أبواب:قدر الخلق, ماهية المجتمع, قوة تأثير المجتمع , أسباب مشاكل المجتمع, الفرق بين المجتمع الدنيوي و المجتمع الاخروي.

تحدد الغاية من الشي(شعوريا أو لا شعوريا) قبل الشروع في بناء الشيء نفسه. فالذي يريد أن يبني مسكنا ما, فأول ما يقوم به هو أن يحدد الشكل النهائي لهذا المسكن, فيرسم صورة للبناء كما تصوره في عقله, ثم يبدأ بوضع الخطط و شراء الالات و جهود العمال لكي يبني هذا المسكن. فاذا كان من كبار البنائين فان الصورة النهائية للبناء يجب أن تكون مطابقة للصورة التي تخيلها المهندس للبناء قبل الشروع فيه. فاذن النهاية قبل البداية. و الصورة النهائية لمشروع البناء هي القدر الذي سيصل اليه البناء اذا سلم من العقبات و المفاجئات.

كذلك قبل أن يخلق الخالق تعالى فانه حدد قدر الخلق, أي الصورة النهائية, أو الحالة النهائية, أو المقام النهائي الذي سيصل اليه الخلق, ثم وضع الأحكام التي سيسير عليها الخلق لكي يصل الى هذا القدر.

و قبل تحديد الغاية من الشيء, الغاية بمعنى الصورة النهائية, يوجد تحديد للغاية من الشيء بمعنى ماذا أريد من هذا الشيء. فمثلا, أكون جائعا, فأريد أن أشبع, فأذهب الى المطبخ لأعد طعاما معينا يوفي لي رغبتي حسب ماذا تكون هذه الرغبة, كأن أشتهي الرز و اللحم فأتخيل الصورة النهائية للطبخة, ثم أبدأ في اعدادها بجلب المعدات و الصبر حتى فراغها و تمامها.

قبل الخلق كان كل شيء معلوما للنفس المتعالية "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن و هو بكل شيء عليم" فكل الاحتمالات و الممكنات كانت في علمه, فكان يوجد مثلا فيل أزرق و أسود و أخضر و أحمر و كل الاحتمالات الممكنة لكل شيء, و لكنه اراد أن يخلق فيلا بلون معين فخلقه, أي أظهره في محل الخلق, الذي هو بالنسبة لنا الخيال, و لذلك قال بعدها "هو الذي خلق السموت و الأرض" فاذن يوجد تساؤلان هنا لابد منهما: ماذا أراد الخالق من الخلق؟ و ما هي النهاية التي سيصل اليها الخلق؟ أي بحسب الثل الذي ضربناه: ما هو الجوع. و ما هي الطبخة النهائية بالنسبة للخالق الأكبر؟

النفس المتعالية هي الوجود اللانهائي الواحد. و بما أنها المبدأ لكل شيء فيجب أن تكون هذه نفسها هي الغاية من كل شيء. فماذا أرادت حتى خلقت, و هذه الارادة متعلقة بها اذ لا مريد بحق غيره تعالى؟ الجواب: أرادت أن ترى نفسها.

أضرب مثلا: هل يستطيع يوسف أن يرى وجهه و جماله بنفسه بدون الاستعانة بشيء خارجي عنه. كالمرآة أو وصف أحد له؟ مستحيل. كذلك لو أن فتى عاش طول عمره في ترف و غنى و في ظل ثروة أبيه العظيمة, و لا يرى الا الأغنياء مثله, و لا يسمع الا عن الأغنياء مثله, هل سيستطيع أن يعرف حقيقة الغنى؟ الذي يعيش طول حياته في النور هل سيشعر بعظمته الا ان رأى الظلمة؟ فالشيء يعرف بضده و غيره.

الوجود اللانهائي الواحد كيف يستطيع أن يرى نفسه و يعرفها؟ بأن يخلق خلقا محدودا متكثرا. كالرجل الأسود الذي ينظر الى رجل أبيض ليعرف أنه أسود. فهو الواحد و لذلك خلق من كل شيء زوجين. و هو الذي نفسه لاتنتهي المطلق العظيم و لذلك خلق محدودا ينتهي الى حد معين كالجسم. فخلق هذه المحدودات لتكون له كالمرآة التي ينظر فيها الى نفسه لما يتجلى لها, و تجليه دائم يستحيل أن ينقطع عن شيء, اذ لا ينقطع الا المحدود. و لما رأى نفسه في مراة خلقه عشق نفسه, لرؤية هذا الجمال المطلق, و السبب الى المحبوب محبوب, فالسبب الى المعشوق معشوق, و لذلك عشق خلقه لأنهم كانوا وسيلته الى رؤية نفسه, و لذلك أراد أن يعطيهم السعادة التامة حبا فيهم, و هذا هو قدر الخلق: أن يصبحوا مع الله "و الى الله تصير الأمور"

فالمخلوقات كانوا معلومات, معلومات في حالة فناء في الغيب المطلق "و هو بكل شيء عليم" فخروجهم الى مساحة الخلق, أي بالمثل هو الخيال الالهي, هذا الخروج هو شاق عليهم. و لكن أرادت النفس المتعالية أن ترى نفسها, و من رحمتها أنها صممت قدر الخلق حتى يفرح الخلق بعملية الخلق, فيتم الرضا للطرفين: الخالق رأى نفسه, و المخلوقات وصلوا الى السعادة التامة. و كان في الامكان أن تخلق الخلق و ايا تكون حالتهم لا يهم و مع ذلك ترى نفسها و يحصل لها الرضا بذلك, لأنه بمجرد ظهور الخلق فقد تمت الرؤية له, و لكن من تمام عشقها أرادت أن يفرح خلقها كذلك, و لذلك رسمت قدر الخلق.

فاذن الحركة الوحيدة للمخلوقات هي لكي يصل الخلق الى السعادة التامة. اذ لا يهمنا في شيء ماهية رؤية النفس المتعالية لنفسها, خاصة في هذا الكتاب, اذ هو من شؤون الخالق التي لا شأن لنا بها. و لكن ما يهمنا هو قدرنا الخاص, أي الشعور بالمتعة و الفرحة. و أي حديث في غير ذلك هو من الكيد و الضلال بوجه أو بأخر. اذ يستغل الناس الغاية الأولى "رؤية الخالق لوجهه" فلا يبالون بفرحتهم و متعتهم الخاصة. و هذا لا يرضي الخالق أبدا بل لعله لا يبالي أصلا. ليس للناس عمل الا الاهتمام بقدرهم الخاص و فرحتهم, هذا ما يمكن أن يزيد من رضا الخالق ان كان يبالي. عليكم أنفسكم.

اذا نظرنا في المخلوقات سنرى كيف أن كمال كل شيء موجود و كامن في نفسه, و لكن يتكشف و يظهر بالتدرج في الاطوار نموا تصاعديا. كالنطفة و البذرة, النطفة تحوي الانسان كله حتى نهايته, كذلك البذرة تحوي الشجرة كلها في داخلها, و لكن النطفة تمر بأطوار النمو, علقة فمضغة فعظاما الى اخر التطور المعروف, و كذلك البذرة تبدأ

بضرب جذورها في عمق الأرض ثم تخرج أصلا ثم الفروع الى اخر التطور, و كذلك اشراق الشمس من الفجر الى الظهيرة.

فكمال كل شيء محدد مسبقا, و لكن يظهر هذا الكمال بالتدرج حتى يبلغ التمام, و كذلك الفرد و المجتمع.

الفرق بين تطور المخلوقات الطبيعية و تطور الشخصية الانسانية هو في أمر واحد: على الفرد أن يختار الترقي. فالبذرة ليس لها أن تقول "لا أريد أن أخرج ثمار" و النطفة ليس لها أن تقول "لا أريد أن أصبح علقة" أما الانسان فله أن يقول "أريد أن أبقى كالحمار يحمل أسفارا, و أريد أن أبقى كالأنعام بل أضل سبيلا" و سيجد حوله من يشجعه أن يبقى حمارا و بهيمة, بل لعلهم يبشروه بأجر عظيم ان بقي على ما هو عليه حتى يأتيه اليقين. و هذا هو الفرق الوحيد اذن : الترقي ارادي في الانسان.

و لكن بما أن البناء العظيم اذا رسم غاية تحققت في الواقع كما رسمها "و الله غالب على أمره" فلا يمكن للعزة الالهية أن تقدر أمرا و لا يتحقق هذا الأمر كما قدرت. و لذلك جعلت هذه العزة الالهية طريقا اخر للوصول الى السعادة التامة و هو:سوط العذاب, أي طريق الألم.

فالذي لا يختار عن طواعية و حب أن يصل الى السعادة التامة فانه سيمر بمصائب و الام تجعله يدرك أن طريق السعادة خير و أبقى من طريق الألم, حتى يختار السعادة عن علم و حب.

نضرب مثلا, رجل أراد أن يرجع الى بلدته حيث أهله و أبناءه. و كان قد سافر الى جزيرة بعيدة في وسط المحيط. فوقف على شاطئ الجزيرة يفكر في العودة الى أهله, و كان بجانبه رجل يملك سفينة, و كان هذا المحيط شديد الظلمة, مخيفا, كثير الأمواج, كبيرها. فعرض عليه ربان السفينة أن يركبه معه لكي يوصله الى غايته بسهولة و سرعة, اذ كانت سفينة ضخمة لا يؤثر فيها البحر بكل ما فيه, و لكنه قال "لا, لن أركب معك, و لكني سأذهب الى أهلي سباحة, سأسبح و أقطع المحيط حتى أصل الى غايتي" فوقف الربان الرحيم متحيرا من أمر هذا الرجل الذي يعرض عليه السهل فيختار الصعب, فقال له "أنت و ما عزمت" . فبدأ هذا المعاند ذو الكبرياء في السباحة, و الربان يرقبه من بعيد ينتظر منه أن يتعب و يناديه حتى يذهب اليه, و بعد ساعات من السباحة انقطع نفسه و تخدرت عضلاته فبدأ ينادي الربان "تعال و خذني معك" فلبى الربان الرحيم النداء.

هذا هو الفرق بين طريق الفهم و طريق الألم. الغاية واحدة و هي الفرحة الدائمة أو السكينة. و لكن الطريق اليها اما سهلا مستقيما أو مؤلما معوجا. و هذا هو الاختيار الذي أعطي للناس. و بذلك يتم قدر الخلق "و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون" .

ففي المجتمعات قد يختار الناس منهج معين لبناء المجتمع و حركته, و يكون هذا المنهج على طريق الألم, أي بغير علم الله القرءاني, فتصيب المجتمع كوارث و مصائب, فقر أو حرب أو عداوات بين الطوائف أو جرائم كثيرة و ما أشبه, فيرجعون الى هذا المنهج و ينقحونه, و ينظرون ما هو الذي سبب هذه المصيبة المعينة فيكتشفون مثلا أنها المناهج الدراسية, فيغيرون هذه المناهج, ثم تنشأ مصيبة أخرى, و هكذا حتى يأتي اليوم الذي يصبح هذا المنهج قريبا أو مساويا لمنهج طريق الفهم. فلماذا لا يختاروا طريق الفهم منذ البداية و يوفروا على أنفسهم كل هذه المصائب و الالام؟ جوهر النفس هو رك, أي الراحة و الكبرياء, فالذي يندفع بنصف الراحة سيفضل طريق الفهم و الذي يندفع بنصف الكبرياء سيفضل طريق الألم, و كلا وعد الله الحسنى و لا يلومن الانسان الا نفسه. هذا هو الندم الذي سيقع فيه الناس لما يكتشفوا أن الفكرة التي توصلوا لها و بذلوا في سبيل معرفتها الدماء و انهار البكاء هي نفس الفكرة التي كانت بين أيديهم و تحت أعينهم منذ البداية. و كم من اية في السموات و الارض نمر عليها يوميا و نحن عنها معرضون!

طريق الألم هو التجربة ثم الفشل ثم حصول الألم ثم التعلم من هذا الذي وقع و العمل على تغييره, هذا في أحسن الأحوال, و لكن أكثر الناس يقعون و يكررون نفس التجربة الخاطئة عشرات المرات و يتوقعون نتائج مختلفة, فترى الأكثرية تتبع منهجا أثبتت التجارب السابقة و الحاضرة خطئه و أنه يسبب المصائب, و مع ذلك تستمر في الأخذ به لأسباب لا محل لتفصيلها هنا و تختلف من مجتمع لاخر. المهم أنها تأخذ نفس النهج الذي ثبت سوء ثمرته في الوقت الحاضر و الزمن البائد, و هذا من مضاعفة العذاب و تبديل الجلود كلما نضجت من الاحتراق- و العياذ بالله و الفهم.

طريق الفهم هو في أحد أمرين: دراسة المجتمعات الماضية و الحاضرة و دراسة طبيعة الانسان النفسية عامة,و في دراسة القرءان الذي ما هو الا أحسن تعبير عن التجارب المتنوعة و الكاشف عن طبيعة الانسان و كيفية الترقى به بما لا يخالف أنانيته و جوهره. و يتجسد اليوم الأمر الأول في علم التاريخ و علم الاجتماع و علم النفس خاصة, و باقي المعارف عامة. و الثاني هو الذي يعمل الذين يدرسون القرءان على ابرازه و هو المجال الذي نسعى للمساهمة فيه. فلنسم الأول طريق العقل و الثاني طريق الوحي اختصارا للكلام.

فاذن الطرق الى السعادة ثلاثة: التجربة, و العقل, و الوحي.

طريق الألم يعبر عنه التجربة و الاعتبار, و طريق الفهم يعبر عنه العقل و القرءان.

و بما أن أساس تكويننا يريد السعادة و يكره الألم, فلذلك لن ننظر في الطريق الأول. فنتخذ طريق الفهم سبيلا الى معرفة قدر الخلق. و العقل هو العقل الذي يدرس التجارب, و الوحي هو العقل الذي يدرس القرءان. و كلاهما خير, و أعظم العقول هو الذي يجمع بين الاثنين. و طريق دراسة التجارب هو ألم بالنسبة لطريق دراسة خلاصة التجارب أي القرءان. و ذلك لسببين هامين على الأقل:

الأول: لكي تدرس التاريخ مثلا فيجب أولا أن تبحث عن المجلدات الضخمة, و تنقحها ثم توثقها ثم تعرضها على مناهج الدراسة التاريخية المختلفة, ثم تقع في بحر الجدل حول أيها أحسن من الاخر, ثم اذا اخترت لك منهجا فعليك أن تبدأ بقراءة عشرات المجلدات, و تمر بكثير من الكلام الفارغ الذي لا فائدة منه سوى الحشو, ثم بعد أن تستوعب كل ذلك ستبدأ بعصر عقلك لكي تستنبط المبادئ منه, و تستلهم الطريق الأسلم للحياة منه, و لو في أحد الجوانب. و كذلك في باقي العلوم. و قد تضطر الى اقامة التجارب, و جمع مئات أو الاف الناس للقيام بتجربة, ثم تكتشف نتيجة معينة, و تكون هذه النتيجة نفسها, نفسها حرفيا, لا أكثر و لا أقل, هي نفس النتيجة التي قد يتوصل اليها دارس القرءان في دقائق معدودة و أحيانا ثوان معدودة. فيشبه الأمر مسافر يمشي و مسافر يطير. و لاحظ أن هذا كله على فرض أنك وصلت الى شيء, و كم من ميت قبل بلوغ غايته.

قد تقول: و لكن طريق التجربة أكثر يقينا من طريق القرءان. أقول: نعم, و لكن لمن لا يعرف كيف يتعامل مع القرءان و ماهية القرءان. فدراسة القرءان لا تلغي دراسة التجارب أبدا, بل تكون مساندة لها, بل القرءان يمدك بأفكار كثيرة لتنطلق منها في أبحاثك, و قد تنظر الى القرءان على أنه كتاب تستوحي منه الفرضيات ثم تسعى للوصول الى برهانها و التأكد من قوة أفكارك التي استوحيتها منه. فأنا لا أقول أبدا بالغاء طريق العقل التجريبي و لا طغيان العقل القرءاني,كلاهما يخون المعرفة, فكما أن لك عينين و يدين فليكن لك طريقين للمعرفة, و بذلك تكون أرسخ و أسرع و أعمق.

و السبب الثاني: في القرءان ليس فقط الأفكار الاجتماعية و النفسية و لكن فيه من الأمور الروحية أي اللاشعورية و غير ذلك مما يملأ الانسان بروح لا يعرفها من لم يغرق في بحر التأمل في عقل القرءان "و كذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا" فالامتلاء بالحب و الروحانية الحقيقية (و ليس خزعبلات و أوهام المهسترين) هو من أكبر ثمرات دراسة القرءان بعمق شديد. و لكن دارس علم الاجتماع مثلا لن يدرس سوى المسائل الاجتماعية بطريقة جادة مملة في الغالب, فالمستنير يجلس ساعة مع القرءان فيخرج بعشرة أفكار جديدة, ثلاثة اجتماعية, و خمسة روحية لاشعورية, و اثنان من أسرار العشق. و عالم الاجتماع يجلس ساعة مع كتب علم الاجتماع فيخرج بفكرتين في الاجتماع, و أيضا قد لا يكون قد فهمهما كل الفهم, و حتى لو فعل فيكون الفهم مجرد استيعاب سطحي لا يؤثر في عمق الوجود و القلب فيغير حياته شخصيا, فتكون دراسته نظرية أكثر منها عملية و روحية. و هذا بالطبع ليس للكل و لكن أحسب أن الفكرة ظهرت فلا أطيل في الشرح.

و لذلك اذا وجدت أحد الذين لا حظ لهم في التأمل, و ليس له الا علم التاريخ و الاجتماع مثلا ستشعر بفراغ فيه, و هو سيشعر بذلك من نفسه, و كأن الملل قد رسم صورته على وجهه, فلا تجد الجمال فيه الا قليلا, و لا تشعر بحياة في كلامه و كأنه ألة مسجلة, أما المتأمل فتراه كالمائدة عليها من أنواع الطعام الشهي الثري و تشعر بنوع من الشرارة أو السكينة في مجاله النفسي و تشعر أن كلماته تصب في عمق قلبك, و حياته تحوي الكثير من الألوان و الاختلافات و الافكار الغريبة التي لم تسمع بها من قبل, و هذا لا يمكن أن يدخل في حياة انسان حصر نفسه على لون واحد من الوان الحياة.

فلهذين السببين: طول طرق العقل التجريبي و أنه يستنفد حياة الانسان في علم واحد أو اثنين, يظهر أن ادخال طريق الوحي هو أمر سيزيدنا قوة الى قوتنا ان احسنا استعماله (و منهاج دراسة القرءان الذي لا يعطل و لا يوهم القلب و عقله شرحناه في كتاب اخر) .

فاذن نخلص الى أن النفس المتعالية أرادت أن ترى نفسها فخلقت الخلق عكسها, و حبا في هذا الخلق وضعت قدر الخلق الذي هو السعادة التامة, و جعلت طريقين للوصول الى هذا القدر المحتوم: طريق الألم و هو التجربة و الاعتبار بعد حصول الألم, و طريق الفهم و هو العقل بفرعيه دراسة التجارب و تحليل الظواهر و القيام بها عن وعي لاستخلاص النتائج, و الوحي و هو دراسة القرءان. و الجمع بين كل طرق الوصول هو أسهل و أضمن سبيل الى الاطمئنان الى حصول الوصول.

فما هي السعادة التامة الممكنة للمجتمع ؟ هذا في الباب الثاني فتعال لتنظر...

(الباب الثاني: ماهية المجتمع)

المجتمع هو الافراد الذين يسكنون على أرض ما, و الأفراد هم مجموعة قيم و صفات (لاشعورية و شعورية) تشكل شخصياتهم و أسلوب حياتهم, و الصفات ثمرة الرغبات التي يعمل على اشباعها هؤلاء الأفراد. وللرغبات درجات, و كل فرد يرتب أولوياته بحسب رغباته فيجعل رغبة أولى من رغبة و تكون الرغبة الأولى هي الرغبة الأساسية التي تتمحور حولها حياته و يضحي بكل شيء و بكل رغبة من أجلها. و المعيشة الكريمة لا تعتبر من الرغبات لأنها من الضرورات, و الضرورة سيدة الرغبات, و انما الرغبة هي ما يريده الانسان بعد أن يعيش. و هي اما أن تكون اللعب و اما أن تكون المعرفة أو كلاهما على اختلاف في التفاضل و هذا نادر. فاذن المجتمع هو مجموع رغبات الأفراد.

فأي مجتمع هو في جوهره مجموع رغبات أفراده, فأي تغيير انما هو تغيير في رغبات الأفراد, و أي تأثير يريد الناس أن يحدثوه في مجتمع ما يجب أن يتوجه الى رغبات الناس, و ليس الى تغيير نظام اقتصادي أو سيايي فقط, فهذا تغيير سطحي لا حقيقة له, فهو كمن يريد تغيير اللب بتغيير القشر. فدراسة رغبات الأفراد و كيفية تكونها و كيفية تقديرها هو من أهم ما يجب على كل حي أن يتعلمه, و هو أهم ما يتمحور حوله كل علم المجتمع الذي هو البحر الذي تصب فيه كل أنهار المعارف الأخرى بل يخلق الأنهار أيضا. فلنبحث في ذلك.

تحصيل السعادة و اجتناب الألم, هذه هي القاعدة التي تحكم كل حركة أو سكنة تخرج من انسان أيا كان. فلو اعتقد انسان أن حركة ما لن تجلب له سعادته في نهاية المطاف فانه ليس في امكانه أن يتحرك, و الأمر ميزان, كفة للسعادة و كفة للألم (و الحساب عادة يتم لاشعوريا) و أي أمر يعرض للانسان فانه يضع الألم الذي سيضطر أن يتحمله في كفة, و السعادة التي يتوقعها في كفة, فان غلبت كفة السعادة هان عليه أمر الألم في الغالب, فهي كالتجارة . و انما يختلف الناس باختلاف مفهوم السعادة عند كل واحد منهم, و اختلاف الأولويات. فالسعادة الناتجة من المعرفة مثلا أولى من السعادة الناتجة من السهر مع المعربدين, مع أن نفس هذه السعادة هي عند الاخرين تعاسة بالنسبة للذي لا يبالي بأمور المعرفة و يهمه العربدة فقط و يجعل الأولوية للعربدة على المعرفة.

أي عمل, قول أو فعل, يقوم به الانسان هو نتيجة لفكرة في عقله, سواء كان واعيا لهذه الفكرة أم لم يكن واعيا بها تماما. واعيا كالذي يدرس الأمر ثم يصل الى نتيجة تقول له "افعل كذا" , غير واعي كالأفعال التي تنتج من العادة. فالفكرة أساس كل عمل.

و الفكرة نفسها هي من الرغبة. فالذي يرغب في الطعام سيفكر ماذا يأكل أو أين يأكل ثم يذهب الى مطعم معين. فالرغبة أساس الفكرة.

و لولا الشعور بالنقص لما رغب أحد في شيء. و هل الرغبة الا سد النقص. فالانسان يجوع فيشعر بنقص الطعام في معدته فيرغب في سد هذا النقص فيرغب في الشيء الذي سيسد له هذا النقص وهو هنا الطعام, فيفكر ثم يذهب ليأكل. فالشعور بالنقص أساس الرغبة.

و لذلك الذي لا يرى الجهل بعلم معين على أنه يعتبر نقصا لا نراه يرغب في تعلم هذا العلم. فمثلا رجل يرى أن تعلم القانون كمال, فعدم العلم بالقانون نقص, فيشعر بهذا النقص فنراه يذهب الى الفقهاء و يشترى كتب القانون و يسمع محاضرات في القانون و يتأذى نفسيا اذا رأي نفسه جاهلا بشيء يخص القانون, أما الذي لا يؤمن بالقانون فلا نراه يتأثر و لو لم يعلم حتى ما معنى كلمة القانون. و السبب أن الأول يشعر بالنقص أما الثاني فلا.

و لا يمكن لانسان أن يشعر بالنقص الا اذا تصور الكمال من قبل و ذاقه فعلا أو في مخيلته. ففي مثل القانوني السابق, الرجل يرى أن تعلم القانون كمال لأسبابه الخاصة, و بحسب هذا الاعتقاد أصبح يشعر بالنقص اذا لم يتعلم القانون, و لكن نفس هذا الاعتقاد من أين نشأ؟ هو تصور أن الكمال في تعلم القانون, و من هنا نشأ شعوره بالنقص الذي ولد فيه الرغبة التي ولدت الفكرة التي ولدت العمل. و أما سبب اختياره لهذا الأمر المعين على أنه من "الكمال" فمرده الى جوهر النفس الذي هو الكبرياء و الراحة, و المجتمع و التجارب الشخصية و الوحي الباطني اللاشعوري هم الذين يحكمون هذا التصور, و لكون الأمر شديد النسبية من شخص لاخر فاني لن أفصل أكثر من ذلك هنا اذ مرد هذا البحث الى علم النفس. فاذن تصور الكمال أساس الشعور بالنقص.

تصور الكمال من أين يأتي؟ لا يمكن أن يأتي من الفرد نفسه لأنه مكتسب, فهو قد ولد و ليس له تصور لا لكمال و لا لغير ذلك. و ظاهر أن الناس في مختلف المجتمعات لهم تصورات للكمال تتباين و تختلف كثيرا. فتصور الكمال يأتي من الغير. و لكن هؤلاء الغير من أين تصوروا الكمال الذي تصوروه؟ فلو كنت أنا أخذت تصوري المبدئي من أبي فأبي أخذه ممن؟ أخذه عن أبيه و أضاف اليه تجربته و فكره. و هكذا كل جيل يأخذ عن الذي قبله و يضيف أو ينقص ما يشاء أو ما يجبر على اضافته أو حذفه. فاذن تصور الانسان للكمال يبدأ من محيطه و مجتمعه ثم قد يتأثر بتجربته الشخصية .

فالمجتمع هو أول من يبذر تصور الكمال في نفوس أطفاله, فمنهم من يحكم على ما وضع فيه اذا نضج, و منهم من يبقى على ما وضع فيه حتى يتوفاه الموت -غير مأسوف عليه.

و ليس الكمال الا ما يسبب السعادة, و ليس النقص الا ما سبب الألم. كالجوع سبب ألم في المعدة و الطعام هو سبب الكمال الذي سبب السعادة عند الشبع (الا في حالات أكل طعام هندي لرجل له معدة حساسة!) . و بما أن تصور الكمال هو أساس المجتمع, و مفهوم السعادة هو أساس تصور الكمال, فاذن مفهوم السعادة هو أساس المجتمع. فبحسب ما تراه الأكثرية في المجتمع على أنه أصل شجرة السعادة يتشكل المجتمع و كل ما حوله من شؤون تعليمية و اقتصادية و سياسية و أعراف اجتماعية.

مفهوم الفرد عن السعادة هو الذي يحرك الفرد. فمفهوم السعادة هو الذي يحرك المجتمع. فتغيير مفهوم السعادة في الفرد كفيل بقلب المجتمع رأسا على عقب. و أي تغيير غير ذلك هو كالظل يوشك أن يذهب بعد قليل.

فهذا هو المجتمع و هذه هي ماهيته: الأكثرية تختار او تضطر لقبول مفهوم عن السعادة فيلد تصورا للكمال, فيلد شعورا بالنقص, فيلد هذا الشعور رغبة, و تلد الرغبة الأفكار, و تلد الأفكار الأعمال, و الأعمال تنتج آثارها في شكل المجتمع و نفسية أهله, و بحسب شكل البلد و نفسيه أهله تتميز المجتمعات و تعرف.

هذه الكلمات الأربعة "الأكثرية تختار مفهوما للسعادة" هي الأساس الأعظم و الأم التي ستلد المجتمع كله. و أي بداية حقيقية يجب أن تبدأ من هنا, فلنبدأ من هنا..

(الأكثرية تختار مفهوما للسعادة) لنحلل هذه الكلمات واحدة واحدة..

(الأكثرية)

تصور لو جئنا بقدر للطبخ, ووضعنا فيه ثلاث ملاعق سكر و ثلاث ملاعق ملح, هل ستكون الطبخة حالية أم مالحة؟ لا هذه و لا هذه. و لكن لو وضعنا خمسة ملاعق سكر و ثلاث ملاعق ملح فان الطبخة تسمى حالية. كذلك أمر المجتمع بحسب الأكثرية يتشكل. نعم يوجد أقلية و لكن الغلبة للأكثرية.

و المنهج الذي يسود في المجتمع هو المنهج الذي زرع في قلوب الأكثرية, فأي تغيير يجب أن يتوجه للأكثرية, للعامة. و لذلك طريقة كلام المصلحين و الكتب التي ينشرون فيها فكرهم يجب أن تكون من نفس ما يفهمه العامة, و لا تكون طويلة بحيث يمل الناس منها و ينفرون منها الا لو كانوا يفضّلون هذا النوع, و اللغة يجب أن تكون بسيطة, خاصة في الكلام المباشر, و لا تستعمل اللغة الرسمية و الصعبة لأن الناس لا تستجيب لهذه اللغة في أكثر الأحيان.

هذه الأكثرية التي زرع فيها مفهوم السعادة, اما أنها ورثتها عن الجيل الذي قبلها, و هذا الجيل من أين أخذ المفهوم؟ هكذا يتسلسل الأمر الى أن يصل الى دعاة لهذا المفهوم. و العوامل الأخرى هي مكملة لزرع هذا المفهوم في الناس. و لكن دعاة هذا المفهوم هم الأساس, هم الاباء.

و الدعاة اما أن يصلوا الى الناس عن طريق مباشر, كالمدارس و المنابر و الندوات و الشاشات, و اما بطريق الكتب و الصحف و المجلات. باختصار عن طريق وسائل الاعلام. فحاكم المجتمع هو صاحب وسائل الاعلام. لأنه بيده اختيار ماذا يدخل في عقول الناس و ماذا سيحجب عن عقول الناس.

و اذا تأملنا في الصورة التي تمثل كيفية حركة المجتمع و يظهر أن أول أمر هو العقل. لأن الاقتناع (بشتى الأساليب و الحيل) بمفهوم السعادة الذي تعرضه وسائل الاعلام على الناس انما هو عملية عقلية. فكرة كالبذرة يزرعها الدعاة في قلوب الناس فيأتي يوم عاجلا أم اجلا و تثمر فيه كامل ثمارها ألا و هي المجتمع الواقعي.

و الدعاة قد يلبسون ثياب رجال دين, أو عالم نفسي أو طبيعي , أو رجل سياسة أو مدرس في المدرسة أو دكتور في الجامعة, او ممثل مسرحي او مخرج افلام سينمائية مهما يكن الظاهر فان الجوهر واحد و هو داعي الى مفهوم السعادة. و أهم هؤلاء على الاطلاق هم اثنين: عالم الدين, و عالم النفس. و على هؤلاء يستند بقية الدعاة.

(تختار)

بما أن وسائل الاعلام تزرع المفاهيم التي تريدها في عقول عامة الناس, و يبدأ ذلك منذ الطفولة, فأي اختيار بقي للناس؟

كلمة اختيار تعني وجود أمرين على الأقل أمام الشخص الذي سيختار, فاذا لم يجد أمامه الا أمر واحد فهذا ليس اختيار انما هو نوع من الاكراه و الاجبار. تصور لو أن مائدة لم يوضع عليها الا صنف واحد من الطعام, الخبز مثلا, ثم جاء جائع و جلس عليها و أكل, هل يستطيع أن يقول "اني اخترت أكل الخبز" ؟ لا, لانه ليس أمامه الا الخبز. و لكن اذا جئنا لرجل بكأس من اللبن و كأس من الخمر و قلنا له أن يشرب ما يشاء , فشرب كأس اللبن, هذا يحق له

أن يقول "انا اخترت اللبن و أعرضت عن الخمر". هذا مثل مبسط لتوصيل الفكرة, و الواقع الاجتماعي و النفسي يعقد الأمور قليلا, حتى ان البعض كنظرية التحليل النفسي (باحدى تفسيراتها) تقترح أنه لا يوجد اختيار أصلا بل حتمية نفسية لاشعورية تتحكم في الانسان. على أية حال, فاننا نبين ما نقصد بالاختيار هنا بدون الخوض في النظريات العميقة. ففي المجتمع الذي يجبر أهله على لبس نوع معين من الثياب, نحن نشعر بداهة أن هذا اجبار, و قل مثل ذلك في كل شيء. فالاختيار موجود بدرجة أو بأخرى, و حتى الحتميات النفسية يوجد طرق لتجاوزها في بعض الأحيان.

مفهوم السعادة هو البذرة التي تحوي الدين كله, و الدين أي نظرة للحياة ينبع منها قيم و منهج للسلوك, أيا كان مصدره و أيا كان اسم صاحبه, فكل منهج للحياة هو دين, سواء أظهر قبل ألف عام أو بعد ألف عام, و سواء أكان الداعي اليه رجل يدعي النبوة أو مهلوس, أو مفكر عاكف على كتبه أو قابع في معمله. فاذا ذكرنا كلمة "دين" فنقصد بها مفهوم للسعادة و ما يتولد عنه من عمل.

فمن الاكراه على الدين أن لا تسمح وسائل الاعلام الا لدعاة دين واحد فقط بالظهور. و هذا دليل ضعف هذا الدين. لأن صاحب الذهب الخالص لا يخشى أن تجرب سبائكه بالنار, أما صاحب النحاس المطلي بالذهب المغشوش الرخيص فلا يسمح حتى لشمعة أن تقترب من سبائكه. فلو وجدت مجتمعا لا يرضى بأن يعرض دينه على نقد العقل فاعلم أي النوعين هو, أحسب أن الفكرة قد ظهرت أليس كذلك.

الاختيار هو جوهر الخلق, و لا يوجد مخلوق الا و قد عرض عليه الخالق أن يختار "ائتيا طوعا أو كرها" فلا يرضى الخالق عن أحد يكره الناس أبدا, حتى لو أكرههم على اطعام الفقراء و سلوك طريق الأنبياء. لا يهم ما هو العمل, المهم هو النية التي بها قام الانسان بالعمل. و النية ان لم تكن عن اختيار طوعي فانها نجسة, لأنها صدرت في الواقع لترضي هذا الجبار العنيد الذي يكره الناس على أمر ما. فحتى دين الله لا يقبله الله من انسان لم يختاره على غيره بعد نظر عميق و مقارنة. أي يرى دين القرءان و يرى الأديان الأخرى, فعندها يختار ما يشاء. و هذه هي الحياة المليئة بالحياة.

فاذا اختارت الأكثرية دينا ما فعندها كل ما يقع عليهم هو مسؤوليتهم وحدهم, و عليهم هم أن يصلحوه, فلا يتلاوم الناس و لا يتحير العقلاء, أنت اخترت فتحمل نتيجة اختيارك, أنت اخترت فافرح بثمرة اختيارك.

و اشدد على أمر يتهاون فيه الكثير, و هو أن الدين هو أهم ما في الحياة, حتى انكار الدين بالمعنى المشهور للدين هو أيضا يعتبر من الدين. فمسائل الوجود و الموت هي مسائل لا يمكن التغافل عنها بل حتى التغافل عنها هو اجابة عنها و اتخاذ موقف منها. بل الهرب من البحث فيها بعمق هو من أكبر أسباب الشقاء النفسي و الفراغ و الملل الاجتماعي. نظرية المجتمع في مسائل الألوهية و الاخرة و النبوة و الكتاب الرباني و الشريعة و الامامة أي المرجعية

الدينية و غير ذلك هي من اهم المسائل. و أي تغافل عنها على مستوى كبير سيسبب ضرر كبير . و أي خوف من الخوض فيها سيؤدي الى نتائج سخيفة و صفات تافهة تنتشر بين الناس كالنار في الهشيم. ما زالت المجتمعات تتأثر بأمر الدين, و حتى مجتمع كفرنسا الذي يعتبر أنه أكثر المجتمعات العلمانية تعصبا يكاد يتحول الى مجتمع ذو أكثرية مسلمة كما يقول البعض, و كذلك مجتمع كأمريكا الذي يعتبره الكثير على أنه رأس الفساد الاخلاقي و الانحلال في العالم لا يزال يحوي نسبة تقترب من 80% من الذين يعتقدون بخالق أعلى , و لن يفلح رجل في الوصول الى منصب الرئاسة الا ان رضي عنه المتدينين. و ان كان هذا هو الوضع في بلاد الغرب "الكافرة المنحلة" فما ظنك ببلادنا العربية. فمسألة الدين بالمعنى الخاص لا تزال هي السبب الأكبر في التأثير على عامة الناس, و في بلاد كالمملكة العربية السعودية لا يزال رضا رجال الشريعة معمول به, و ان كان يمكن كسب رضاهم بطرق أخرى. و سبب تأثير الدين الالهي القوي هو بحث خاص بحد ذاته, و لكن اذا أردنا أن نضع سبب سطحي مشهور فانه بسبب أن أكثر الناس محرومة من اللذات في هذه الحياة و الدين يزرع فيهم الأمل بجنة فيها ما تلذ الأعين, و الأقوى من ذلك هو الخشية من الدخول الى الفرن الأبدي – و العياذ بالله.

و أحسب أن أقوى المجتمعات هي التي فيها حوار ديني قوي الى أبعد الحدود الممكنة. و هذا بالطبع للناس الذين يريدون حياة مليئة بالحياة, أما خلق الغنم فلا يحتاج الا الى دين واحد ذو نظرة واحدة يجبر الناس عليها و يعمّى عليهم غيرها, بل وجود احتمالات أخرى في عقول الشعب هو خطر كبير على الأمن العام- و الامن العام هو امن الطبقة المتسلطة كما لا يخفى على ذوي الالباب و "الزنادقة!".

(مفهوما)

فالأمر كما علمت هو عملية عقلية في جوهره, و يجب على الانسان أن يفهم الاختيارات التي تعرض عليه, و يحسن الفهم بأن يتعمق في كل فكرة و لا يرضى بالسطوح أبدا, و يطيل التأمل لأن حياته كلها قائمة على اختياره هذا.

و لا يوجد اختيار حقيقي للانسان الا هنا في مفهوم السعادة.و الباقي هو مسيّر فيه. لأنه ما هو الا ثمرات للبذور التي اختار أن يزرعها في قلبه.

و التجربة من أحسن وسائل الفهم. و لكن ثمة أمور قد يجربها الانسان فتصيبه بكسر لا ينجبر أبدا (الا المتأمل الذي يشاهد العقل كما يشاهد الجسم) كالذي يجرب أمرا فيحكم عليه بالسجن أو يصاب بمرض لا يشفى منه –و العياذ بالله. و ثمرة التجربة الحسنة هي ثمرة عظيمة تطعمك و تطعم الكثير من الناس معك, فتمهل, و أحسن اختيار الشيء الذي تستطيع أن تجربه و تخرج منه بسلام. و فرّق بينه و بين المفهوم الذي قد يؤثر تأثيرا لا ينتهي أثره حتى تنتهي حياتك معه, و أقول هذا ليس لأجعلك تتردد و تخاف, بل انزل الى ساحة الحياة مليئا بالحماسة و

الحب و الثقة بأنك تحت عين ستجعلك تصل الى أحسن الذي ترجو الوصول اليه أيا كان "و من يتوكل على الله فهو حسبه" "و من يؤمن بالله يهد قلبه" . فاذا كنت ترغب في شيء حقا و الوصول اليه فانه من المحتمل جدا أن تجذبه اليك أو يجذبك اليه.

و في كثير من الأحيان قد تستغني عن القيام بالتجربة بنفسك, كأن تقرأ في سير الناس و الكبار و العلماء, و تقرأ في كتب التاريخ, و تشاهد المسلسلات و الأفلام المتنوعة, فان هؤلاء يجعلوك ترى التجارب و هي تقع أمام عينيك كأنها حقيقة, بل تمثل الحقيقة بأسرها في أكثر الأحيان. و في هذه الأمور من الخير الشيء الكثير. فتصور لو أن شابا يفكر في أن يجعل حياته قائمة على تجارة المخدرات و ترويجها و ما يتبع ذلك من صحبة رجال و نساء سوء (و لكن ممتعين أيضا في بعض الأحيان) فاذا شاهد فيلما عن شاب قام بذلك و رأى كيف انتهى به الأمر الى الموت السيء أو التشريد أو التعذيب في السجن و ما أشبه من احتمالات حقيقية و تقع للأكثرية من أصحاب هذا السلك من العمل, أليس هذا من أحسن الأساليب التب قد تبصره في هذا الأمر و قد تزجره عن هذه الرغبة. كذلك الذين يريدون اختيار سياسة معينة لادارة شؤون المجتمع, اذا قرأ في التاريخ عن أناس قاموا بمثل ما يريد ان يقوم به هو, ثم رأى كيف انتهت تجربتهم بالفشل, و قارنهم بنفسه فقد يغنيه هذا عن خوض الفشل بنفسه . و هكذا في بقية الأمور, فالتعلم من تجارب الاخرين من أحسن أساليب تفادي الألم و تقريب النجاح في كثير من الأحيان. و كما قيل في الحكمة "خذ العبرة قبل أن تصبح أنت عبرة" .

فعلى الانسان أن يفرّق متى يجرب في خياله و متى يجرب بنفسه. و حيث لا يطمئن عقلك جرب بنفسك. و اضمن لنفسك مخرجا قبل الدخول في التجربة. و ان لم تستطع فخاطر, و هنا أحلى أيام الحياة, أو من أحلاها. خوض المجهول متعة العظماء.

(السعادة)

السعادة هي كالنار التي تتولد من الحركة. هي الشعور الذي يتولد من السعي الى الكمال. فحيث يتوقف السعي الى الكمال فهنا جهنم الشقاوة على احد الاعتبارات. فالسعادة هي السعي الى الكمال.

رجل يؤمن بأن الجسم الجميل كمال. فيسعى لذلك بالتمارين الرياضية و الأنظمة الغذائية (و أحيانا شيء من الهرمونات) و هو في متعة أثناء فعل هذه الأمور الى جانب الألم, فما ان يبدأ جسمه يصبح جميلا, و تبدأ رؤيته تتحقق حتى يبدأ في حالة الشعور بالسعادة. ففي كل يوم من أيامه بعد ذلك هو ليس في متعة بل سعادة, ينظر الى المرآة فيرى جسمه جميلا, يسمع مديح الناس له, يرى انجذاب النساء له, يستشعر كبرياءه عندما يرى الواقع و قد تطابق مع تصوره السابق, كل هذه الأمور تتحقق فتراه سعيدا. و يستمر في السعي لأنه ما ان يتوقف عن التمارين و الأنظمة حتى يبدأ في الانحدار. و لكن نفس هذه التمارين قد تغير طعمها, اذ لما كان سمينا قبيحا كان

التمرين شاقا عسيرا, و كان يستمد متعته من تخيل نفسه جميلا بعد حين بسبب هذه التمارين, و لكن ما ان أصبح رشيقا وسيما حتى أصبح التمرين من أجمل ساعات اليوم.

كذلك في كل الأمور. كطالب العلم الذي يجاهد ليل نهار ليفهم علم معين ثم يصبح ممن يؤلفون فيه الابحاث و يتصدرون للكلام فيه. كل يوم هو في سعادة مادام يستمر في السعي و الترقي.

فمن كان عنده وقت ليسأل نفسه ان كان سعيدا فليعلم أنه شقي. فليكف عن الهذيان و يبحث له عن كمال يسعى اليه.

و الكمال ليس أمر واحد, و كلما زاد عدد الكمالات التي يسعى لها الانسان كان أسعد من غيره, مادام لم يرهق نفسه لدرجة كبيرة بحيث ينسى لذة السعي, و مادام لم ينشغل عن أمور مهمة بأمور أقل أهمية. نعم هذه أمور نسبية, و لذلك على كل انسان أن يحدد أولويات حياته, من الأولى للأولى. و ليكن أولى كمال عنده أمر لا يحتاج فيه الى غير نفسه الباطنة, لكي لا يحزن اذا فقد غيره. أما اذا كان أصل سعادته كامن في نفسه فانه لن يشقى أبدا بالكلية, و هل ستفارقه نفسه!

و نصف السعادة في ترتيب الأولويات, ترتيب الكمالات. و لا تعتمد في أصل فرحتك على غيرك, لأن الناس تتغير و تذهب, و الأشياء تأتي و تذهب, و الصحة تأتي و تذهب. و أسعد الناس من كان أصل سعادته في الجلوس وحده و اغماض عينه فافهم.

فاذن هذه هي ماهية المجتمع الجوهرية: الأولوية عند الأكثرية.

(الباب الثالث: قوة تأثير المجتمع)

عرفنا أن حالة المجتمع هي أثر ناتج عن عمل, و العمل ناتج عن فكر, و الفكر سببه الرغبة, و الرغبة سببها الشعور بالنقص, و الشعور بالنقص سببه تصور الكمال في الشخص, و تصور الكمال مبني على مفهوم السعادة عند هذا الشخص, و مفهوم السعادة أساسه من المحيط و تجارب الاخرين, ثم قد يغير الانسان مفهومه عندما يكبر و يخرج على مفهوم مجتمعه السائد أو قد يبقى عليه الى أن يتوفى مع تغييرات بسيطة أحيانا لا تذكر و لا تصل الى حد الثورة أي قتل النفس وبعثها من جديد برؤية أخرى -و لذلك لا نعتبرها تغييرا حقيقيا.

و عرفنا أن أصل رغبة الانسان و حاجته للمجتمع هو من أجل تحصيل المعيشة بأيسر الطرق الممكنة عنده.

و عرفنا أن كل الناس يحكمهم قانون واحد و هو الرغبة في الراحة و السعي الى الكبرياء, أو ما يقال له أحيانا "تحصيل السعادة و تجنب الألم" .

تتجلى قوة تأثير المجتمع, أو قل ان المجتمع يمارس قوته عن طريق ثلاثة أمور: التربية, المعيشة و الصحبة.

أما التربية: فبما أن أول مفهوم للسعادة و نظرية الحياة بصورة عامة انما تزرع في الانسان بحسب قيم مجتمعه, أي أهله و محيط بلدته و ما يسمع حوله و يرى من أصدقائه و أعدائه, و بما أن الانسان اذا اعتاد على أمر اعتقده, و اذا اعتقد أمرا -خاصة اذا حفر فيه منذ الصغر- فانه يصعب عليه أو على غيره أن يغير اعتقاده, اذ يصبح الاعتقاد فيه كالجبل الراسخ, و من يستطيع نسف الجبال الا الله, فلذلك كله تكمن أهمية المجتمع و خطورته في آن واحد. و الأكبر من ذلك هو أن كبرياء الانسان ينجرح اذا شعر بأنه كان على "باطل" أو كان مضحوكا عليه, و لذلك سيدافع عن ما زرع فيه دائما لا لأنه يفهمه أو حتى لأنه يعجبه شخصيا, لا , و لكن حتى يحفظ كبرياءه -الذي هو جوهره - من أن يمس لا سمح الله.

و أما المعيشة: فلأن الانسان الذي له دين, أي مفهوم عن السعادة و شؤونه المختلفة (و لا يخلو انسان من ذلك أبدا) غير دين مجتمعه فانه سيكون منبوذا مكروها, و اذا غضب عليه الناس انصرفوا عنه و سيرفضون توظيفه أو قبول أعماله, و هذا تهديد مباشر لمعيشته. كالمعلم في الجامعة مثلا, اذا علم الطلاب ما لا ترضاه الجامعة, حتى لو كان القرءان نفسه, فان الجامعة سترفض ذلك و لعلها تطرده, و سيبقى هو و أهله و أبناءه جياع لا مال لهم, و لذلك يؤثر الناس تعليم الباطل الذي يعلمون أنه باطل و يقولون كتبرير "عندي أطفال أريد أن أطعمهم". و صدق, لأن المعيشة مقدمة على المعرفة في الأصل. و لكن عليه ان استطاع أن يترك هذه البلدة الظالم أهلها, و ان لم يجد حيلة فلا شيء عليه. و المعيشة هذه هي العصب الرئيسي الذي يلوي ذراع أهل المجتمع. جوع الجسم هو اكبر أسباب ذلة الروح.

و أما الصحبة: فان الحب هو تشابه الرغبات و الصفات بين نفسين و أكثر. فترى الشاب مثلا يحب رياضة معينة فاذا تقابل مع شاب اخر يحب نفس هذه الرياضة و بنفس الشغف فيشعران و كأنهما أصدقاء منذ زمن طويل, و كذلك الرجل تكون فيه صفات فيقابل امرأة تكون صفاتها و رغباتها تشبه رغباته أو ترضى عنها, فيقع بينهم الحب, و يشعران بحميمية عجيبة حتى لكأنهم يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد. و لكن اذا وجد رجل يحب و يرغب في أمور و امرأة ترغب في عكس هذه الأمور فعندها يقع الطلاق و تستحيل الحياة الزوجية, لماذا؟ لأن اختلاف الرغبات يؤدي الى اختلاف الصفات, و اختلاف الصفات تنافر باطني يحرض عاجلا أم اجلا على التنافر الظاهري. و هذا لعله سبب كل عداوة بين الناس اجمعين الى حد كبير: اختلاف الرغبات.

فهذا الذي أصبحت رؤيته للحياة و بالتالي رغباته تختلف عن مجتمعه, هل سيكون له أصحاب يساندونه أو يسلونه في حياته؟ غالبا لا. و لذلك يعيش منطويا على نفسه متوحدا, لأنه لا يجد أحد له رغبات كرغباته. و من هنا يؤثر أكثر الناس موافقة المجتمع في دينه, في رغباته, حتى لا يستوحش مع نفسه و ينعزل في بيته.

فالمجتمع بقواه الثلاثة هذه يقسر تسعة أعشار الناس على قبول دينه, و العشر الأخير تسعة أعشاره أيضا يقعون تحت هذا القسر بدرجة أو بأخرى. و القسم الأول بسبب التربية و المعيشة يجبر على اعتناق أغلال المجتمع أو يرضخ لدينه طوعا أو كرها. و القسم الثاني معيشته مضمونة و لكنه يريد أصحاب و لا يستطيع الجلوس وحده في بيته من أجل دين ما أيا كان (و أسباب هذا عقد نفسية و ظلمات عرفانية ليس هنا محل شرحها).

ماذا يحدث للذي يخرج عن دين مجتمعه, أي تصبح له رغبات غير رغبات مجتمعه و منهج في الحياة غير منهجهم؟ ينفى أو يقتل أو يسجن, هذا اذا تحدث و دعا الناس الى منهجه. و يحيا في تصارع مع نفسه و في ازدواجية كئيبة اذا سكت, لأنه سيعمل بجسمه ما لا يأمره به عقله, و هذا تدمير لسنت الله التي لا يستطيع أحد أن يخرج منها و الا صار الى جهنم, و لذلك يحيا في جهنم كل من له رؤيا يراها هي الاحسن فعلا و لا يدعوا اليها و لا يستطيع أن يعمل بمقتضاها.

و من هنا تنشأ الحركات السرية و المذاهب الغامضة المتخفية. فهؤلاء أذكى من أن يعلنوا أمرهم على الملأ حفاظا على أنفسهم, و أقوى من أن يخضعوا للسكوت و العزلة, فسعوا الى الجمع بين الأمرين فخرجوا بفكرة السرية في الدعوة, يكلمون و لكن في الخفاء, و يرمزون كلامهم لينجذب الناس لهم اذ الناس تحب الأسرار (لعل حياتهم المكبوتة اللاشعورية الخبيثة لها علاقة بذلك) فاذا ءامنوا بدعوتهم شرحوا لهم الرموز. و هي الأمور المجردة التي تفسر رؤيتهم للحياة و منهجهم للمجتمع الأفضل الذي يؤمنوا به. و من هنا نشأت اللغة الرمزية التي هي وسيلة تواصل الممارسين للتقيّة. و هذا لا يمنع كون فكرة الرموز مبنية على تدرج الحقائق الوجودية. الا ان التقية هي من أهم الدوافع الى استعمال اللغة الرمزية.

و قد حاول و ما يزال يحاول الناس, المستنيرين منهم خاصة, الخروج من قبضة المجتمع و النجاة من سوطه, فخلقوا علاجا لكل أمر من الأمور الثلاثة التي يستعملها المجتمع لفرض سيطرته على أفراده.

أما للتربية: فأرسلوا أبناءهم الى المدارس العامة كعامة الناس, و لكنهم يعلمونهم في البيت المنهج الذي يؤمنون به, فينظرون في ماذا تعلمهم المدارس و ما كان له أثر سيء علموا الابن الأمر الحسن الذي يؤمنون به لكي يتفادوا غسيل الدماغ الذي تقوم به المدارس. نعم سيجد الأبناء صعوبة و لكن ذلك خير من أن يصبح أحد بهائم المجتمع (حسب نظرتهم). و هذا الصنف من الأبناء عادة ما يكبر عبقريا أو شديد الذكاء حسن المعاملة واثق بنفسه, ان أحسن أهله تربيته بحيث لا يقسون عليه جدا أو يجعلونه مزدوج الشخصية الى حد كبير. و تفصيل ذلك له محل اخر.

و أما للمعيشة: فاشتروا المزارع و أنشأوا المصانع و المتاجر و الشركات, لكي يحصل لهم اكتفاء ذاتي بدرجة كبيرة. و لذلك مع الوقت يصبح أصحاب الحركات السرية من أصحاب الأموال الضخمة و النفوذ, و يصبحون من الذين يتحكمون في معيشة المجتمع أحيانا. و ترى التكافل بارزا بين أصحاب الأفكار السرية خاصة في أمور المعيشة, حتى لا يضطر المؤمن أن يتأثر بقيم المجتمع "الفاسد" , و يعملون على تقدير معيشتهم بحيث لا يحتاجون الى صدقة الناس أو أحد غير أنفسهم. و غالبا ما يكونون من الذين يتقنوا الأعمال, حتى اذا انكشف أحدهم على أنه من أصحاب مذهب "كافر" لا يستطيع الناس خاصة الأثرياء التخلي عنه. كالعبرانيين (اليهود) مثلا الذين كانوا في نظر العرب الاسلاميين من القردة و الخنازير الملاعين المغضوب عليهم و لكنهم مع ذلك لم يستغن عنهم الحكام في الماضي- بل و الحاضر أحيانا- و جعلوهم رؤساء حساباتهم المالية و أطباءهم الشخصيين, و ليس شيء أغلى عند الحاكم من ماله و جسمه. لماذا؟ لأنهم من أمهر الناس في أمور المال و الطب-خاصة في الماضي فيما يتعلق بالطب- فيجدون لهم الأعذار و يقولون "لنا طبهم و عليهم كفرهم" و ما أَشبه من تبريرات.

و أما للصحبة: فهذه أهون ما يواجهه أصحاب الرؤى الثورية, خاصة اذا كان فيها مسحة من الروحانية, لأن أمثال هؤلاء يصحبون عوالم أخرى فلا يحتاجون الى صحبة العوام الذين هم في نظرهم كالأنعام بل أضل سبيلا. و حتى لو لم يكن روحيا, بل كان سياسيا محضا مثلا, فانه يكون في انشغال تام في حياته من حيث الدراسة و التخطيط و التنفيذ, فلا يشعر بالملل من الوحدة. و انما يجد الوحشة: الفارغ لا غير. و أيضا اجتماعهم بأصحابهم و أنصارهم هو أحب اليهم من كل شيء, و لذلك ينظمون المجالس و الاجتماعات.

و في أكثر الأحوال يحاول الانسان أن يوفق بين دينه الشخصي و دين الأكثرية في المجتمع, فيضحي قليلا بما عنده ويأخذ مقابل ذلك من المجتمع ما يحتاجه, و غالبا يركز في أمر المعيشة, فهو يعمل كل ما يؤمن له المعيشة التي يرتضيها لأهله و لنفسه, و يترك كل ما من شأنه أن يحرمه من معيشته الامنة. فهو على استعداد أن يعرض عن جبريل و ميكائيل اذا وقفا أمامه, و هذا حكم الناس الا أقلية تعد على الأصابع (و لعل سر قبولها لمخالفة المجتمع علنا هو نزرعة انتحارية لا شعورية).

انظر الى أي درجة بلغت قوة تأثير المجتمع حتى ان المؤمن قد يلعن السماء و من فيها ليرضي المجتمع و ليرضى عنه و ملأ معدته و يدفئه! فهل هناك أولى من فهم المجتمع الأحسن و العمل على انشائه و المجاهدة في سبيل ذلك؟ لا أظن. و لكن يجب أن تكون فيك نزعتين لتسعى للثورة العميقة على المجتمع: رغبة كبيرة في الحياة, و رغبة عميقة في الموت! تستعجب؟ لا تعجب, فهذا هو الواقع و اذا لم تفهمه فأنت لست من أهله. فعش مطمئنا و تأكد أن تشبع بطنك جيدا حتى لا تموت. نعم أنت ستموت على أي حال, و لكن على الأقل سيتأجل موتك قليلا بالنفاق و السماح لمن تكرههم بأن يركبوا ظهرك كالسيد الذي يركب حماره. دمتم سالمين.

(الباب الرابع: أسباب مشاكل المجتمع)

لا يمكن أن يعرف أنه في مشكلة الا اذا حدد لنفسه من قبل غاية. فمثلا ان كانت غايتك أن تسافر الى المدينة المنورة و أردت أن تصل اليها في ثلاث ساعات و كان يجب عليك أن تصل اليها في هذه المدة و الا فان حياتك معرضة للخطر, فها أنت قد حددت الغاية بكل وضوح, و الآن اذا تأخرت الطائرة, هذه مشكلة, و لو سافرت بالسيارة و تعرض لك قطاع طرق فهذه أيضا مشكلة.

و لكن تصور لو أنك لم تحدد هذه الغاية, و كنت مسافرا لمجرد النزهة, و تأخرت الطائرة و في أثناء انتظارك قابلت عالما و تحدثتم سويا و أفادك بما عنده, فهل تأخر الطائرة مشكلة؟ لا, بل هو نعمة. و لو أنك رأيت رؤيا و نبئت فيها أنك ستحصل على أمر مهم عندما تصل الى المدينة المنورة, و جعلت لك اية و هي أن قطاع طرق سينهبوا ما معك من مال, ثم سافرت بالسيارة و ظهر القطاع كما جاءك النبأ في الرؤيا, فعلمت وقتها صدق الرؤيا و أنك ستنال الأمر العظيم الذي وعدك به الله, فهل قطاع الطرق في نظرك الان قد قاموا بعمل مشين أم أنك لن تلتفت اليهم أصلا بل تعطيهم المال بابتسامة لعلمك بما سيأتيك بعد قليل؟

و هكذا لا يوجد حادثة أو أمر له حكم مطلق غير مشروط. بحسب غايتك يتشكل حكمك.

فعلى ذلك لا يمكن أن نقول على أمر أو حادثة أنها من مشاكل المجتمع الا بعد أن نحدد الغاية من الحياة الاجتماعية, أو الصورة النهائية للمجتمع, بعد ذلك و بعد ذلك فقط نستطيع أن نقول "صواب و خطأ". و الذين يحكمون قبل تحديد الغاية بوضوح انما استطاعوا الحكم لأنهم يتصورون غاية ما في عقولهم و لكنها قد لا تكون واضحة تماما لهم, أو أنها لاشعورية, أو أنهم لم يتعلموا بعد كيفية التعبير عنها, أو لا يرغبون في كشفها للناس او حتى لانفسهم.

المجتمع يشبه أمرين في عالم الافاق, هما مثل له كما يبين القرءان و العقل في اية البعث: النطفة و البذرة. النطفة التي تمر بأطوار متعددة حتى تصبح انسانا في أحسن تقويم, و البذرة التي لا تزال تنمو حتى تصبح شجرة طيبة مباركة. فاذن التطور و التحسن في أساس المجتمع الأحسن. و ما منع من التطور فهو من المشاكل.

و بما أن تيسير المعيشة هو أساس الاجتماع, بشروطه الثلاثة أو قل أركانه الثلاثة التي ذكرناها في المقدمة: و هي أوقات العمل و الاختيار و عدم الاضرار بالعامل. فكل ما خالف ذلك كان من المشاكل الواقعة. و كل ما يؤدي أو أنه يؤدي الى ذلك بطريق خفي هو أيضا من المشاكل.

و مهما تيسرت المعيشة لانسان و عاش بين أثرى الناس فانه لا يزال في تعاسة, ما لم يتوفر أمر اخر. و السعادة و الفرحة هي المطلوبة الوحيدة لكل الناس, مع تفاوت في معناها أو صورها. و لكن المعلوم المشترك أن الفرحة شعور, والشعور ناتج من مفاهيم القلب و حالته, فقد يرى الانسان أمرا على أنه مفرح و اخر و لعله أخوه التوأم يراه محزنا, و السبب هو اختلاف مفاهيم السعادة عندهم. فالعقل بكل ابعاده هو أصل السعادة و الفرحة. فاذن المعرفة من أهم ما في أساس المجتمع و قاعدته. و لا يوجد معرفة نافعة ان وجد قيد على العقل أيا كان أو اجبار على التعلم. فالمعرفة الجالبة للفرحة هي ما توفر فيها الحرية و المشيئة, و الا فهي جهل بثوب أبيض. و الحرية هي أن تدرس ما تشاء و تبحث عما تشاء. و المشيئة أن تكون حرا في دراستك. من شاء أن يتعلم فليتعلم و من شاء أن يحيا كالانعام فهو و ما اختار. ففي كلمة واحدة: سبب الفرحة الجوهري هو المعرفة الحرة, و كل ما منع منها فهو من المشاكل.

فاذن: قاعدة المجتمع الراقي هي: التطور الدائم, تيسير المعيشة و المعرفة الحرة.

و جعل التطور الدائم قبل تيسير المعيشة و المعرفة الحرة لأنه لانه لولاعزم الأكثرية على التطور الدائم و زوال موانع التطور لما تيسرت المعيشة و لما تحققت الحرية المعرفية. فأول ما يجب أن ننظر في أمره هو التطور الدائم, و موانعه و علاجها, و ما محفازته و دوافعه و الدعوة بها.

(التطور الدائم)

التطور مقرون بالتغيير, التغير من الأسوأ الى السيء و من السيء الى الحسن و من الحسن الى الأحسن, في كل جانب من جوانب الحياة بلا استثناء. و الدوام معناه أن لا يقول العقل "الى هنا و اكتفينا".

في عمق نفس كل انسان يوجد "التطور الدائم" و لكن في ماذا يضع هذ القوة, هنا يختلف الناس. فمنهم من يجعلها في معاونة الناس عن طريق تطوير وسائل المعيشة, كالذي يطور المصباح من الزيت الى الكهرباء. و منهم من يجعلها في الترقي بنفسها خاصة, كالذي يطور جسمه من السمنة البشعة الى الصحة و الجمال و القوة. أو في الازدياد في الرفعة عند الاله بالطقوس فكل يوم يريد أن يكسب حسنات أكثر و ما أشبه. و الانسان الذي يحيا و

يتنفس و لا يوجد عنده أي جانب يريد أن يطوره فهو ليس بحي أصلا و لكنه كالذي يهوي من السماء و ما هي الا دقائق و يقع على الأرض و يتكسر و يموت, و لعل هذا تطور نحو الموت!

و بما أن أساس الاجتماع بين الناس هو لتيسير المعيشة فاذن يجب أن تكون الأولوية في التطور الدائم منصبة لهذه الغاية. فعلى كل فرد من أفراد المجتمع أن يساهم في تيسير المعيشة, على نفسه حق للمجتمع يجب أن يؤديه راضيا مختارا, لأنه كما أنه يريد من الناس أن يعينوه فكذلك عليه أن يعينهم. فمقياس صلاح الفرد من فساده هو مقياس نفعه للمجتمع في أمر تيسير المعيشة خاصة أولا, ثم يأتي بعد ذلك اضافته للمعرفة و التسلية بكل فروعها.

و يوجد علاقة جدلية قوية بين "تيسير المعيشة" و "المعرفة الحرة" و نموها الدائم. اذ كلما زادت المعرفة أدى ذلك الى اكتشاف وسائل لتيسير المعيشة, كالالة الزراعية بدل أيدي البشر و المحراث, و كالتأمل الباطني بدل الاكل الزائد و استعمال المخدرات القاتلة. و كلما تيسرت المعيشة أدى ذلك الى راحة الناس و هذا يؤدي الى تفرغهم للدراسة و تطوير المعرفة. فهما وجهين لعملة واحدة في أكثر الأحيان. و الحالة الاستثنائية هي كوجود ثروات في أرض دولة تجعل أهلها أغنياء و لكن أغبياء, و هذا نادر و لكنه واقع.

و بما أن المعيشة أولى من المعرفة, اذ الميت لا يدرس, فلنبحث في أشهر الأسباب التي تمنع تطور وسائل المعيشة ثم موانع تطور المعرفة. و لتلازم الأمرين سنرى أن الكثير من العقبات المانعة لتطور المعيشة هي نفسها عقبات أمام نمو المعرفة الحرة.

(الزهد و الاعتقاد في الجنة بعد الموت الجسماني)

يقوم الزهد و الرياضات الروحية على عدم المبالاة بالجسم قدر الامكان, نلفه في خرقة و نرضيه بلقمة. و ننشغل بالتأله و الاذكار و الرقص و ما أشبه طوال اليوم. و الفتح على الله هو الذي سيسوق لنا الرزق. فعلى هذا أي اهتمام سيبقى في تطوير المعيشة؟! ان كان بعضهم يرضى بأكل الجراد و العسل البري و الحشيش. و حتى يومنا هذا يقوم الزهد على الاقلال من الحياة الدنيا لعنها الله قدر الامكان. بل تزداد رفعة الانسان كلما قل اهتمامه بهذه الحياة السافلة. و مجرد تعظيم هؤلاء الزهاد يكفي لخلق الاثار السيئة و ليس من الضروري أن تكون أنت نفسك تأكل الجراد و الحشيش.

و مما يحفز بعض هؤلاء هو اعتقادهم بالجنة بعد الموت الجسماني. و يفهمون غالبا أن الجنة شهوات جسمانية فيقولون "ندع هذا الفاني لذاك الباقي".

و أكثر المجتمعات التي تنتشر فيها المذاهب الدينية التي لها هذا الاعتقاد, أي النعيم بعد الموت للمؤمن عامة و للزاهد خاصة, يكون أثر هذا الاعتقاد فاشيا فيهم, بدرجة أو بأخرى.حتى لو لم يكونوا هم أنفسهم من الزهاد. فترى أهل هذه المجتمعات لا يبالون بتطوير الأمور, و لعل في عمق أنفسهم شيء يقول لهم "ألا يكفي أنكم لستم من الزهاد و الأتقياء, و تريدون أن تغوصوا في الدنيا أيضا, ثم تطمعون أن تدخلوا الجنة؟!!"

فالحياة عندهم كمحطة القطار, تنزل فيها قليلا ثم تنتظر القطار القادم في أي لحظة لتركبه و تكمل السفر, قطار الموت بالطبع. و انسان ينتظر الموت لا يمكن أن ننتظر منه ابداع. و انسان ينتظر الجنة بعد الموت لا أظنه يبالي بهذه الحياة التي هي أشبه بمزبلة مقارنة بذاك النعيم المقيم. و الواقع يشهد على صدق هذا الوصف مهما قال الناس غير ذلك من كلام يشبه الهواء الفارغ.

حتى اذا تولوا وظائف عامة تراهم قليلي الاهتمام و الحماس لها.اللهم الا ما كان سببا لبقائهم في عملهم الذي هو سبب كسب معيشته الضرورية أو ما يريدونه لأنفسهم. أما تطوير و ابداع فهذا ليس له محل لأنه يريد أن يرجع الى بيته ليقرأ أوراده و يطيل صلاته(هذا في أحسن الأحوال) , و في أسوأ الأحوال (و أشهرها بين الناس) شخص يؤمن أنه سيذهب الى الجنة لمجرد ادعائه أنه ينتمي الى دين معين ثم يذهب ليلهو و يلعب, و على أية حال فالجنة مضمونة له اذ هو من الأمة المغفور لها أو المشفوع فيها أو شعب الله المختار و ما أشبه ذلك من أحلام و أماني و تكهنات.

فيجب اعادة النظر في الزهد و فروعه لمن يريد أن يطور. و أما المجتمع الذي يرعى أمثال هذه المقولات ثم يرغب في تيسير المعيشة و تحسين حياته فهو كالذي يريد أن يشعل النار و لا يحترق بها, يريد أن يقف على النار مباشرة و يشعر بالبرودة, و يحق لنا أن نتنبأ بوجود عقد نفسية حادة و من النوع الخبيث في هؤلاء.

(الايمان بالغزو)

أسهل طرق كسب المعيشة هو أن تسرقها ممن يملكها و تستعبد من يقدر أن يعمل لك و يوفر لك ما تريد منها. و كان هذا الغزو له شكل معروف في الماضي و الحاضر, و في الغالب اليوم يلبس ثوب جديد.

جعل الغنيمة هي وسيلة العيش يجعل الناس لا تهتم بغير اشباع حاجاتها بدون أن تهتم أصلا كيف جاءت, أو كيفية تحسينها. و الاعتقاد بجواز الأسر و استعباد الناس يجعل السيد مترفا يستغل عبيده في أعمال المعيشة "الحقيرة" بينما يأكل هو ثمرة هذا الجهد. و بما أن العبد غالبا ما يكون مكلفا بمشاق لا يعلمها الا من وقع فيها فانه يصبح في حالة انشغال تام, أي عدم الفراغ, أي عدم الدراسة للترقي في المعرفة. مما يؤدي الى عدم تطوير المعيشة.

و السيد المتعالي عن هذه المهن المهينة منشغل بين اشباع بطنه و السماع للراقصات و المطربات و غير ذلك من أمور. فلا السيد يطور المعيشة و لا العبد. الأول لترفه و الثاني لدوام انشغاله.

و الغزو سمة البدو المتوحشين. اذ يأنفون من أعمال الزراعة غالبا و الصناعة اليدوية و يجعلونها سمة المذلول المهين أما همهم فهو في المرعى الذي يخرجه ماء السماء, فيتنافسون و يتقاتلون على هذه المراعي, و يعيشون على التمر و اللبن و اللحم و ما شابه من الأمور البسيطة, و العلم عندهم لا قيمة فعلية له , و بينهم و بين الكتب تار قديم. و هذا سمتهم دائما حتى لو سكنوا الحضر و تمدنوا. البداوة صفة نفسية لا فرق لو كان صاحبها يسكن الصحراء أو يسكن مع الملوك في القصور.

فالغزو يأخذ صورة الاعتداء المباشر بالسرقة و النهب. و الغير مباشر بالاستعباد و الاستغلال. و على الوجهين التطور لا محل له من الاعراب.

(الحكومة القاهرة الظالمة)

الجماعة التي تسيطر على الحكم و تتسلط على رقاب الناس بقوة يجب أن تحافظ على هذه القوة لكي تبقى في الحكم. فبقاء الشي مرهون ببقاء السبب الذي يقيم هذا الشيء. و اذا انهدم الأساس انهدم البناء.

و ابقاء القوة يعني زيادة قوتك و اضعاف قوة خصمك أو من تريد أن تبقى متسلطا عليه. و الناس اذا جاعوا و جاع أبنائهم و زوجاتهم أصبحوا و لا هم لهم سوى البحث عن طعام لهم أو علاجهم. و لا يبالي الرجل عندها لو كان الحاكم هو الصادق الأمين أو رئيس الشياطين. المهم توفير الضروريات و الحاجيات للنفس و الأهل.

أما اذا شبع الناس و لبسوا و تعافوا و أمنوا و تعلموا فماذا تظن أنهم سيفعلوا ؟ سيخوضون في البحث و النقد. و بما أن الحكومة القاهرة ظالمة فانهم سيبدؤون في التفكير في كيفية تغييرها, أو تقويمها في أحسن الأحوال. و الطواغيت لن يرضوا بأن يسكنوا كما يسكن عامة الناس و يأكلوا كما يأكل الناس, و لن يرضى أبناءهم أن يعاملوا كما يعامل الناس, لا هو و لا جنوده سيرضون بذلك. فاذن يجب أن نحول بين الناس و الراحة. هذه أحد أهم طرق البقاء في السلطة. و لعل التبرير الديني يساعد البعض و يقول أن الحيلولة بين الناس و الراحة هو للحفاظ على عقائد الناس من الزيغ لأن الترف كفر و الراحة تؤدي الى التفكير و التفكير هو الطامة الكبرى و أم الخبائث و العياذ بالله من التفكير!

فهل تسعى حكومة كهذه الى تيسير المعيشة؟ هدفها هو تعسير المعيشة فكيف يرجى منها دعم تيسير المعيشة!

(غياب المنافسة)

المنافسة أحد أهم أسباب التطور. لأن العامل يريد أن يبقى في عمله, و يريد من الناس أن يشتروا منتجه, و وجود اخرين يقدمون منتجا منافسا له يجعله يبحث عن طرق لتحسين منتجه. فيعمل على انتاج أحسن شيء بأرخص تكلفة. و سعي المتنافسون لذلك يجعل التطور دائم. و يوجد حالات تجعل المنافسة أمر سيء. فهي سلاح ذو حدين.

مثل غياب المنافس كمثل غياب المشكك. ففي مجتمع يسود فيه مذهب واحد من التفكير و لا يوجد دعاة من مذهب اخر, ترى الجمود و التبلد قد غلب على عقول علمائهم و أهلهم. اذ يعيدون القديم كما هو, مما يجلب الاشمئزاز و الملل بعد فترة. أما لو وجد دعاة من مذهب اخر يدعون لقيم غير قيم المذهب الأول, و يوجهون التساؤلات حول قيم المذهب الأول, فان هذا مدعاة لتحريك العقول, و زيادة التحقيق في شؤون المذهب, و تحسين أسلوب الدعوة لاجتذاب الناس و غير ذلك.

فالمنافسة تخلق الابداع أولا لأن العامل يريد أن يبقى في عمله, و ثانيا عندما يأتي اخر و يأخذ هذا الابداع و يزيد عليه و يبني عليه و يحسن فيه. فالمنافسة تجعل الزبد يذهب جفاء و تجعل ما ينفع الناس يمكث في الأرض, في رغبات الناس و حياتهم.

(رسوخ الأنانية المقيدة)

الذي لا يهمه سوى أن يحيا لنفسه و لأقربائه و لا يبالي بغيرهم و البعيدين عنه. فهذا لن يعمل على التطوير الا ان اضطر اليه اضطرار, كما في المنافسة مثلا. و هذا من أعظم الأمراض تفشيا في المجتمعات عامة, و هو عدم المبالاة بغير النفس, و عدم الاهتمام بتقدم الناس بشكل عام. فهمي أن آكل و أركب حتى أموت و ليذهب باقي الناس الى الجحيم. هذه هي قاعدة حياة الأناني المستعبد في حدود نفسه و لم يتمكن أن يجعل نفسه تكبر لتشمل غيره.

لعل هذه الأسباب الخمسة هي من أهم موانع تطور المعيشة خاصة و المعرفة عامة. و بما أنه لا يمكن وصف علاج الا بحسب حالة المريض, فقد يصاب أخ بالزكام و كذلك أخيه و مع ذلك يصف الطبيب لهما علاجا مختلفا. كذلك هنا, اذا قررنا أن كذا من أمراض المجتمع فان كلامنا هو بصورة عامة. أما اذا أردنا أن نبحث عن علاج لهذا المرض, فيجب أولا أن نقرر ما هو المجتمع الذي نريد أن نبحث له عن علاج, ثم ندرس هذا المجتمع بحسب ما هو عليه و تاريخه و شؤونه المختلفة, ثم لعلنا نستطيع أن نساهم في معالجة أمره.

و لذلك لن نذكر مجتمع بعينه في هذا الكتاب, اذ اني احاول أن نفهم شيئا عن المجتمعات بصورة عامة. ثم تطبيق ذلك على المجتمعات المختلفة له دراسات أخرى ان شاء الله. و الآن لنكمل البحث في موانع المعرفة الحرة.

موانع المعرفة الحرة. نفس ما قيل في موانع تطور المعيشة يمكن أن يقال هنا و لو من وجه اخر. و نزيد عليه أمرين:

(تحريم الدين)

المعرفة لا تكون الا حرة, فلو فرض قيد على البحث سواء من الباحث نفسه أو عليه من غيره, فان النتيجة ستكون كالوجه المشوه بالحريق. سواء أكان القيد مباشرا بالقانون أو غضب عامة الناس و التشهير بالباحث. أو غير مباشر مثل التعرض لكراهية الناس. و أقوى قيد يفرض على الباحث هو قيد الدين. لأن الدين (هنا) مربوط بالاله المطلق و من ثم بالحياة القادمة و الثواب و العقاب الأبدي.

فالباحث الذي يعتقد بدين يحرم حرية البحث المطلقة, حتى لو كانت ستؤدي الى انتهاك مقولات الدين نفسه, لا يستطيع هذا المستعبد أن ينتج أمرا نافعا بحق. و المجتمع الذي يعتقد بمثل هذا الدين لن يستطيع أن يتقبل مثل هؤلاء المفكرين. و هذا الرفض سينتج اضمحلال الحركة العلمية. ثم الى تحول الجماهير الى حمير.

و بما أن الهدف الأساسي للمعرفة هو تيسير المعيشة, فيجب ابعاد كل مقولة تؤدي الى فرض اي قيد على البحث. و الأمور كلها مترابطة, فما ان يرد القيد على نوع من البحوث حتى يطال كل البحوث. لأن العقل لا يعرف الا الزوجية فاما الاستعباد و اما الحرية. يا ابيض يا اسود, لا يوجد منطقة رمادية.

و لا أرى دينا من الخالق الا و هو تام الحرية, و الا فليس من الخالق.

ثم على ماذا يدل تجريم الدين للمعرفة العقلانية و الروحية الحرة؟ يدل على خوف أهل الدين من العقل و الروح. و لماذا يخاف الناس من العقل؟ لأنه قد يتوصل به الى أمر فيه هدم لدينهم. فاذا كان خالق العقل هو خالق العوالم, و خالق العوالم هو منزل الدين, فلماذا يهدم العقل الدين الذي نزل من الخالق؟ اذن اذا رأيت مجتمعا لا يسعى للبحث الحر في كل الأمور, و ادعى أنه يمتنع عن ذلك بسبب الرغبة في الحفاظ على دين الخالق, فاعلم أنه لا هذا مجتمع انساني و لا هذا دين الخالق.

الأديان الباطلة كالجسم تحتاج الى هواء لتحيا. و هواء هذه الأديان هو سذاجة الناس و سخافتهم و أمراضهم النفسية. اذ ما أسهل انقياد من لا يتساءل. فمن الأحسن للناس ان يرفضوا مثل هذه الأديان المدمرة لراحة و كبرياء الانسان.

(أن لا يكون العلم كمال)

كل تصرفات النفس مدفوعة بتصورها للكمال. فالذي لا يرى أن تمام العلم من الكمال لن يبالي بطلب المعرفة أو تحسينها و الترقي فيها. و في مجتمع لا يكون للعالم تقدير كبير لا يمكن أن ينتشر تصور الكمال هذا في قلوب أهله.

و لماذا لا يقدر الناس العلماء؟ لأن أمور الحياة بيد السفهاء. فالمعاملات تجري بالوساطة و القرابة. و المناصب للأكفأ بالدم أو المال لا للقوة و الأمانة. و الشهرة و النساء للأقوى جسمانيا و الأثرى مالا. و السلطة و النفوذ لصاحب السلاح. فما فائدة الفكر و الخيال اذن؟ لا شيء سوى تعاسة صاحبها الذي ليس له من دون الله ولى و لا نصير.

أو لعدم فهم قيمة الفكر المستنير, و حقيقة أن الانسان ليس حيا الا بقدر علمه. و أن السعادة من فروع العلم و ثماره. و غالبا ما يسفه العقل في مجتمعات الدين أو في طبقة المذلولين المنبوذين. لأن الواجب على هؤلاء هو طاعة رؤسائهم و أسيادهم و حسب.

بما أن كل ما يريده الانسان من كل حركة و سكنة هو الراحة و الكبرياء, فاذا لم يجد الانسان أن العلم سيولد الراحة, أو سيجعله يشعر بالكبرياء. فانه لن يجعل تمام العلم في تصوره للكمال.

و الناس تقلد الناس. و كلما زاد حديث الناس عن أمر زادت عظمته عندهم. و لذلك يجب أن يعظم المجتمع أهل العلم و الفكر الناقد. و ما هذه الا نتيجة زوال موانع التطور و المعيشة و الحرية المعرفية. فان الناس اذا شبعت و أمنت و شجعها المجتمع على العلم و ذاقت الراحة و الكبرياء, فانها ستجعل العلم في تصورها للكمال. و على التعليم أن يزرع هذا في الأطفال. و قيمة المجتمع بحسب العلم الذي فيه.

(الباب الخامس: الفرق بين المجتمع الدنيوي و المجتمع الاخروي)

حكم الجماعة هو حكم الأكثرية. فان كانت الجماعة مكونة من 100 شخص, 70 شعورهم سوداء و 30 بألوان مختلفة, فاذا أردنا أن نحكم على هذه الجماعة سنقول "الجماعة ذات الشعر الأسود". و كذلك في الطعام , فاذا كان مقدار السكر أكثر من الملح فان الأكلة تعتبر حالية,و ان كان الملح اظهر سميت مالحة بالرغم من وجود الطعم الحلو فيها الا أن الطعم المالح غلب لأنه الأكثر و أقوى. فالأمر كالميزان, رجحان الكفة اليمنى لا يعني أن الكفة اليسرى فارغة, و لكن يعني أن وزن اليمنى و ثقل ما فيها أثقل من ما في الكفة اليسرى. فحكم المجتمع هو بحسب الأكثرية الغالبة.

المجتمع مجموعة أفراد. و الانسان الذي يريد أن يعيش لابد ضرورة أنه يريد أن يعيش من أجل أمر أو أمور. و هذه الأمور لها أولويات, فبعض الأمور أولى من الاخر. و لا فضل لانسان فقط لانه يريد أن يعيش فحتى الجهلة و الدواب تقاتل لتعيش. و لكن السؤال هو لماذا تريد أن تعيش؟ و نهاية التحليل تظهر أن الانسان يريد أن يعيش ليلعب أو ليتعلم بحسب الأولوية. فكونه يعيش ليلعب لا يعني أنه لا يتعلم, و كذلك في العلم. و لكن تكون الأولوية عنده و الأهم في حياته اما اللعب و اما العلم.

الذي يجعل اللعب أهم شيء في حياته فهذا يحيا الحيوة الدنيا. و الذي يجعل التعلم هو سبب تنفسه فهذا يحيا الحياة الاخرة. و المجتمع الذي يكون أكثر أهله يؤسسون حياتهم على اللعب (حتى لو كانوا من الفقراء) فهو مجتمع دنيوي. و المجتمع الذي أكثر أهله يقيمون حياتهم على الترقي في المعرفة هو مجتمع أخروي.

(ما هي حياة اللعب؟)

"أرسله معنا غدا يرتع و يلعب" "انا ذهبنا نستبق" "فاستبقا الباب" و هذا هو جوهر اللعب. و كل الألعاب, فريق يريد أن يسبق فريق, فريق يفوز و فريق يخسر, الخاسر يحزن و الفائز يستمد فرحته من خسارة الفريق الاخر. فالحزن و التعاسة في جوهر حياة اللعب.

"اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأمول و الأولاد" تأمل في أن الفرحة في الحيوة الدنيا مستمدة من تعاسة الاخرين. فمثلا, متى يفرح المتفاخر؟ أو لماذا يريد أن يتفاخر اصلا؟ هو يقول لصاحبه "اني املك كذا" لماذا قال هذا؟ لأنه يريد من صاحبه أن يشعر بالنقص لعدم امتلاكه كذا, و عندما يشعر بالنقص يرى المتفاخر أنه عال و كبير لعدم شعوره بالنقص, و من هذا الشعور بالعلو على اخيه يفرح. و قل مثل ذلك في المتكاثر. فهل رأيت يوما رجل غني يجالس رجل غني مثله و يفاخره بنوع السيارة التي يملكها ان كان صاحبه يملك مثلها؟ لا, و لكنه يذهب الى من يملك أقل مما عنده, و يفاخره. فكلما شعر الناس بالنقص و الحزن استمد الذي يحيا الحيوة الدنيا فرحته, اذا خلا مما شعورا بالنقص بسببه.

و اللهو و الزينة الجسمانية أمران لا حد لهما. فكلما حصلوا على شيء و استعملوه مدة أصابهم الملل, و أرادوا غيره. و لا شك أنهم لن يرضوا بأقل مما عندهم اذ الهبوط يسبب الكابة, فدائما يريدون الأغلى, حتى ان المرأة لا تمانع بأن تلبس عقد من الماس يمكن أن يعيش بثمنه سبعين عائلة لمدة سنة أو أكثر, فقط لتجعل صاحباتها يشعرن بالنقص لعدم امتلاكهن مثل هذا العقد, ثم هي تستمد الفرحة من شقائهن المعنوي. و بالطبع قل ما شئت عن حظ الزوج التعيس الذي سيوبخ طول الليل بسبب فشله و كسله و عدم قدرته أن يكون مثل زوج فلانة, ثم سلسلة الجحيم لا تنتهي. هذا على المستوى الفردي و الأسري.

أما على المستوى الاجتماعي و السياسي, فان المجتمع الدنيوي دائما بحاجة الى أموال و خدمات الشعوب الأخرى. و وسيلتهم هي الجيوش و الاستعمار الظاهري و الباطني, لأن مواردهم محدودة, خاصة اذا كانت أغلبية لذة الناس مستمدة من اللعب و التفاخر المالي, و بذلك يحتاجون الى موارد غيرهم. و هم لا يريدون العمل الشاق, خاصة الأمور السافلة بنظرهم, فيجلبون العمالة من البلدان الأخرى, بطرق مشروعة و حقيرة في بعض الأحيان, كالتسبب في فقر مجتمع حتى يضطر الناس للهجرة للعمل, ثم يستقبلونهم بأذرع مفتوحة. كالدابة التي وقعت في المصيدة. فمن هذا الوجه يعيشون على شقاء الناس و سرقتهم. و على المستوى الاجتماعي يوجد ما يقابل الموجود على المستوى السياسي. و الفرق أن الحيل الاقتصادية هي المستخدمة بدل الحيل العسكرية و الدبلوماسية. و راجع كتابنا (عن الاقتصاد النافع) المخصص للاقتصاد فنرجيء البحث فيه الى ذلك الحين.

فهذه هي الحيوة الدنيا و هذا هو جوهرها: استمداد الفرحة من تعاسة الاخرين. و مصاص الدماء ليس كائن خرافي كما يحسب السطحيين من المتسرعين في أحكامهم, مصاص الدماء هو الانسان الدنيوي الذي يعيش على جروح الاخرين.

(ما هي حياة العلم و التأمل؟)

هي ضد حياة اللعب. فالعالم يفرح عندما يرى الناس يفهمون و يصبحون أعلم منه. و كلما أخذوا منه فانهم في الحقيقة قد أعطوه. لأنهم قد جعلوا فراغا داخله, و أصبح هذا الفراغ مستعد لاستقبال أفكار جديدة. و العلم ليس

له أرض محدودة, و لا موارد تنتهي, فأرضه الحياة بكل ما فيها, و مواره طاقة العقل الروحاني للانسان الذي لا ينضب.

و التحليل يظهر أن الشعور بالكبرياء هو سبب السعادة الأكبر. و انما يقوم الناس بما يقومون به ليشعروا بالكبرياء. و أي كبرياء أعظم من أن يصبح العالم فيك, و أن تفهم من أحكام الخلق و أسرار العوالم حتى يتحد عقلك مع سر الخالق الأعلى الكامن في باطن الحياة؟

أن تعيش لتتعلم, هذا هو مجتمع المعرفة. و لن يعرف الناس السلام, و لن يعرف الناس الراحة, و لم يعرف أي فرد الفرحة الدائمة الا فر حالة واحدة لا ثاني لها: أن يجعل سبب حياته هو التنور. حتى يتم نورهم, و تتحد رؤيتهم مع رؤية سر العوالم فيرون كما يرى.

قيام المجتمع الدنيوي يكلف أكثر من قيام المجتع الاخروي و أصعب بكثير. أكثر من الحيل و الخداع و الكذب المستمر و أكثر من المال و الجهد و الحروب و الدماء, و أكثر من التعاسة و الحقد و الحسد و الكره. (و يظهر أننا نفضل هذه الحياة السيئة!) و هذا ليس كلام خيالي, كل انسان يحيا احدى هاتين الحياتين لا محالة. حتى أنت أيها القارئ العزيز. فهل يمكن الا أن تكون في مكان منير أو مظلم؟ استحالة, اما يوجد نور قليل أو أكثر من الأماكن الأخرى هذه مسألة أخرى, و اما لا يوجد نور بل ظلام تام.

اللعب أساس الحيوة الدنيا, و العلم غاية الحياة الاخرة. و لا محالة فانك ستختار, فافعلوا ما شئتم, و كل امرئ بما كسب رهين.

فلنلخص هذا الكتاب: المجتمع الذي أكثرية أهله من أصحاب الحياة الاخرة, حياة العلم, هو الجنة. و المجتمع الذي أكثرية أهله من أصحاب الحيوة الدنيا, حياة اللعب, هو جهنم.

و سيأتي اليوم الذي يرى فيه الناس أن حياة اللعب هي سبب الشقاء, و سيختارون او يضطرون ان يحيوا حياة العلم. و عندما يصبح الغالبية العظمى من أهل الاخرة, الذين يقيمون حياتهم على فرحة القلوب بالعلم و التأمل , بدل لذة رؤية تعاسة اخوانهم, فعندها و عندها فقط سيتم الدخول الى الأرض المقدسة. و عندها يمكن أن نقول بدون نفاق بل بحق "الحمد لله رب العلمين"